مجلة المجمع العلمي العراقي

الجزء الأول ـ المجلد الثامن والثلاثون
بغداد
رجب ١٤٠٧ هـ ـ آذار ١٩٨٧ م

يزيد بن المهلّب بن أبي صُفرة الأزديّ

فاتح شطر ما وراء النهر وشطر خراسان وشطر طبرستان

اللواء الركن محمود شيت خطاب
(عضو المجمع)

(٢)

دوره في الادارة

١ ــ في السلطة :

كان يزيد يحارب تحت لواء أبيه المهلّب الخوارجَ في كَرْمان سنة سبع وسبعين الهجرية (٦٩٦ م) ، فاستدعى الحجّاجُ المهلّبَ وأمره أن يوليَ كَرمان مَنْ يثق به ويجعل فيها مَن يحميها ويقدِم إليه .

واستعمل المهلّب على كَرْمان يزيدَ ابنه ، ثم سار إلى الحجّاج ، فلما قدم عليه أكرمه وأجلسه إلى جانبه وقال : « يا أهل العراق ! أنتم عبيد المهلّب ، ثم قال : أنت « كما قالَ لَقيْط بن يَعْمرَ الاياديّ في صفة أُمراء الجيوش :

وقَلِّدوا أمرَكُم لله دَرُّكُمُ
رَحبَ الذِّراع بأمْرِ الحَرْبِ مُضْطَلعَا
لامُتْرَفاً إنْ رَخاءُ العيش ساعده
ولا إذا عضَّ مكروهٌ به خَشَعَا
مُسَهَّدُ النّوم تُعْنيه ثغوركُمُ
يرومُ مِنْها إلى الأعداءِ مُطَّلَعا
ما انفكّ يحلبُ هذا الدّهرَ اشطرَهُ
يكونُ متّبعاً طوراً ومتّسِعَا

وليس يَشغلــهُ مــــالٌ يثمِّـرُهُ
عنكم ولا وَلَـدٌ يبغي له الرَّفَعَا
حتى استمرَّت على شَزْرٍ مَريرَتُه
مستحكم السنّ لا قَحماً ولا ضَرَعا (١)

ولا نعلم بالضبط كم بقي يزيد على كَرْمان ، ولكن أباه تولى خُراسان سنة ثمان وسبعين الهجريّة (٦٩٧ م) ، فالتحق بأبيه ، وشهد تحت رايته معارك في الفتح .

وفي سنة اثنتين وثمانين الهجريّة (٧٠١م) توفى المُغيرة بن المهلّب الذي كان قد استخلفه أبوه على خُراسان ، فدعا المهلّبُ ابنه يزيد ووجّهه الى (مَرْو) خلفاً للمغيرة ، وكان يزيد يقاتل مع أبيه في بلاد ما وراء النهر ، فعاد يزيد الى (مَرْو) وكيلاً لأبيه على خراسان (٢) .

ولكنّ المهلّب تُوفي في هذه السنة ، فكتب يزيد إلى الحجّاج يُعلمه بوفاة المهلّب ، فأقرّ الحجّاجُ يزيدَ على خُراسان (٣) .

وبقي يزيد على خُراسان حتى سنة خمس وثمانين الهجرية (٧٠٤ م) حيث عزله الحجّاج وولّى مكانه أخاه المفضّل بن المهلّب ، بعد أن أمضى على خُراسان أربع سنوات تقريباً . قضى أكثرها غازياً في الجبال والوديان والسهول والفلوات . ولم يقض إلاّ وقتاً محدوداً في (مَرْو) عاصمة خُراسان .

وقد ذكر المؤرخون عدّة أسباب لعزله . نذكرها مجملةً لنعرف السبب الحقيقي لهذا العزل .

---

(١) ابن الاثير (٤٤١/٤) .
(٢) ابن الاثير (٤٧٢/٤ – ٤٧٣) .
(٣) الطبري (٣٥٥/٦) وابن الاثير (٤٧٦/٤) ، وانظر طبقات ابن سعد (١٣٠/٧)

وكان سبب عزل الحجّاج يزيد بن المهلّب عن خُراسان ، أنّ الحجّاج وفد إلى عبد الملك بن مروان ، فمرّ في طريقه براهب ، فقيل له : إنّ عنده علماً . ودعا الحجّاج بالرّاهب ، وسأله عدّة اسئلة ثم سأله : « أتعلمُ مَنْ يلي بعدي ؟ »، قال : « نعم ! رجل يقال لـه يزيد » ، فقال : « أفتعرف صفته ؟ » قال : « يغدر غُدْرَةَ ، لاأعرف غير هذا ! »

وسار الحجّاج وهو وَجِلٌ من قول الراهب ، فلما عاد كتب إلى عبد الملك يذمّ يزيد وآل المهلّب ، ويخبره أنهم زُبَيْريّة (٤) ، فكتب إليه عبد الملك : « إني لا أرى طاعتهم لآل الزُّبير نقصاً بآل المهلّب ، وفاؤهم لهم يدعوهم إلى الوفاء لـه » .

وعاد الحجّاج ليكتب إلى عبد الملك من جديد ، يخوّفه غدر يزيد وبما قال الرّاهب ، فكتب عبد الملك إليه : « إنّك قد أكثرتَ في يزيد وآل المهلّب ، فَسَمِّ لي رجلاً يصلح لخراسان ، فسمّى : قُتَيْبةَ بن مُسْلِم ، فوافق عبد الملك على تولية قُتَيْبةَ » . (٥)

وقيل : إنّ سبب عزله أنّ الحجّاج سأل أحد فرسان المهلّب (٦) ، وكان مع يزيد ؛ فقال له الحجّاج : « أخبره عن يزيد » ، فقال : « حَسَنُ الطّاعة ، ليّن السيرة » ، قال : « كذبْتَ » أصدقني عنه » ، قال : «اللهُ أجَلُّ وأعظم ، قد أسرج ولم يُلْجِم » ، يريد أنه أكمل استعداداته للانتقاض على الحجّاج ، قال : « صَدَقْتَ » (٧) .

---

(٤) يريد انهم موالون لآل الزبير بن العوّام رضي الله عنه .
(٥) الطبري (٦/٣٩٣ ـ ٣٩٤) ، وابن الأثير (/٥٠٢ ـ ٥٠٣) .
(٦) هو الخيار بن ابي سَبْرَة بن ذؤيب بن عَرْفَجَة بن سفيان بن مجاشع .
(٧) الطبري (٦/٣٩٥) .

وقيل : إنّ سبب عزله أنّ الحجّاج كتب إلى يزيد : « إغزُ خُوارزم » ، فكتب : « إنها قليلة السَّلَب ، شديدة الكَلَب » ، فكتب إليه الحجّاج : « استَخْلِف واقدمْ » ، فكتب يزيد : « إني أريد أن أغزو خُوارزم » ، فكتب الحجّاج : « لا تغزُها فانها كما ذكرت » ، فغزا يزيد ولم يطعْه ، فصالحه أهلها وأصاب سبياً . وقفل في الشتاء ، وأصاب الناس بردٌ (٨) .

وقيل : إنّ الحجّاج استقدم يزيد من خُراسان إلى العراق ، فتباطأ في العودة ، فكتب الحجّاج إلى أخيه المفضّل : « إني قد وليتك خُراسان » فجعل المفضّل يستحثّ يزيد ، فقال له يزيد : « إنّ الحجّاج لايُقرُّك بعدي وإنما دعاه إلى ما صنع مخافة أن أمتنع عليه ، وستعلم » (٩) .

وقيل : إنّ الحجّاج لم يكن له حين فَرَغَ من عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث همٌّ إلاّ يزيد بن المهلّب وأهل بيته ، وقد كان الحجّاج أذلّ أهل العراق كلّهم إلاّ يزيد وأهل بيته ومَنْ معهم من أهل المِصْرَين : البصرة والكوفة — بخراسان ، ولم يكن يتخوّف بعد عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بالعراق غير يزيد بن المهلّب — فأخذ الحجّاج في مواربة يزيد ليستخرجه من خُراسان ، فكان يبعث إليه ليأتيه ، فيعتلّ عليه بالعدو وحرْب خُراسان (١٠)

وقد ذكرنا أن الحجّاج كان يأخذ على يزيد تحيزه لقومه على حساب قوم الحجّاج ، أي يتحيز للقحطانيين على حساب العدنانيين ، أو أهل اليمن على قيس ، حتى قال عبد الله بن عامر قبيل تنفيذ حكم الاعدام به بوقت قصير : « لارأت عيناكَ ياحجّاج الجنّة إن أقلْتَ ابن المهلّب بما صَنَع » ، قال : « وما صَنَع ؟ » ، قال :

---

(٨) الطبري (٣٩٦/٦) وابن الأثير (٥٠٤/ — ٥٠٥) .
(٩) (٣٩٥/٦ وابن الأثير ٥٠٣/٤) .
(١٠) الطبري (٣٩٦/٦ — ٣٩٧) .

لأنه كاسَ في إطلاقِ اسْرَتِه
وقادَ نَحوكَ في أغلالِها مُضَرا
وَقَى بقومِكَ وردَ الموتِ أسْرَتَهُ
وكان قومُكَ أدنى عندَه نَظَرا

فأطرق الحجّاج مَليّاً ووقرت في قلبه ، وقال : « وما أنتَ وذاك ! اضرب عنقه » فضربت عنقَه . ولم تزل في نفس الحجّاج حتى عزل يزيد عن خُراسان وحَبَسَه (١١) .

تلك هي مجمل الأسباب التي ذكرها المؤرخون في عزل الحجّاج ليزيد : سبب خرافي يرتكز على الرّجم بالغيب الذي هو في علم الله لا في علم البشر ، وخوف الحجّاج من تمرّد يزيد عليه وعلى الدولة يستند على ماحققه يزيد من نجاح إدارياً وقائدا ، وثقة يزيد العالية بنفسه فيرى أنه ند للحجّاج وليس آلة من آلاته يحركها حين يشاء كيف يشاء ، ورغبة الحجّاج في إذلال الناس كافة ويزيد لايمكن أن يذلّ لأحد لماضيه التليد وقابلياته المتميّزة وإنتاجه الجديد ، وتحيُّز يزيد لقومه ، وليس وحده يتحيز لليمانيين قومه فجميع القادة والأمراء تقريباً يعتمدون على قبائلهم ويتحيزون لها ومنهم الحجّاج الذي يتحيز لمُضرَ كافة ، والتَحيّز للقبيلة دعوة جاهلية حاربها الاسلام ، فخبت حيناً ثم اندلعت بعد حين .

ولم تكن من تلك الأسباب عدم كفاية يزيد أو إخفاقه في مهمته إداريّاً وقائدا ، فانَ أعماله في خُراسان مشهودة ، كما كان الناس يحبونه حبّاً جمّاً ، فلما سار إلى الحجّاج مُتَخَلِياً عن ولاية خُراسان ، كان لايمرّ ببلد إلاّ فرش أهله الرياحين (١٢) تكريماً ليزيد وتقديراً لخدماته وإظهاراً لحبه

(١١) الطبري (٣٨٠/٦) وابن الأثير (٤٨٨/٤ .
(١٢) الطبري (٣٩٦/٦) وابن الأثير (٥٠٥/٤) .

وتقديرهم له ، في وقت كان فيه قد تخلّى على السلطة أو تخلّت عنه ، والناس أو أكثرهم مع (الواقف) صاحب السلطة لا مع الذي انحسرت عنه الأضواء .

واعتقد أنّ الحجّاج عزل يزيد عن خُرسان لهذه الأسباب مجتمعة ، بما فيها السبب الخرافي ، فقد كان الحجّاج من الرجال الذين يصدّقون مثل هذه الخرافات ، كما كان يصدّقها كثير من أنداده الذين عاصروه والذين جاءوا من بعده إلى اليوم (١٣) ، وسيبقى غيره من عظماء الأمم يصدقونها غدا .

فقد نزل الحجّاج في حرب عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث (دير قُرَّة) (١٤) ، ونزل ابن الأشعث (دير الجَماجِم) (١٥) ، فكان الحجّاج يقول : « أما كان عبد الرحمن يزْجُر الطير حيث رآني نزلتُ (ديرَ قُرَّة) ونزل (دير الجماجم) (١٦) ! !

والأمثلة على تصديق الحجّاج للخرافات كثيرة ، وهو ليس وحده من بين العظماء الذين يصدّقون بالخرافات ، فأمثاله كثير قديماً وحديثاً .

وقد كان الحجّاج من الذين يتّسمون بالمركزيّة المفرطة إلى أبعد الحدود ، فكان يحب أن يأمر فيُطاع سواء كان أمره حقاً أو باطلا ، ولا يقبل أبداً أن يُعصى أمرُه أو يُناقش أو لايُنفّذ فوراً ، فراجَ في وقته – وبخاصة في أيام السّلام – ، الولاة المتّبِعون ، وانحسر في وقته الولاة المتبوعون ،

---

(١٣) في مذكرات ونستن تشرشل ، أنه كان في أيام الحرب العالمية الثانية اذا نزل القاهرة ، استدعى احدهم (الأسيوطي) ليسأله عما سيكون في المستقبل ، بالنسبة له شخصيا وبالنسبة لأحداث الحرب !!

(١٤) دير قرة : دير بازاء دير الجماجم ، وهو ملاصق لطرف البر ، ودير الجماجم مما يلي الكوفة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٦٢/٤) .

(١٥) دير الجماجم : دير بظاهر الكوفة على سبعة فراسخ منها ، على طرف البر السالك الى البصرة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٣١/٤ – ١٣٢) .

(١٦) الطبري (٣٤٧/٦) وابن الأثير (٤٦٩/٤) .

وكان يزيد من القادة المبتدعين الذين لهم رأيهم الخاص ومن الذين يستطيعون عند الحاجة أن يقول لمن يعمل بامرتهم « لا ! » .

وكان كلّ ذنب يزيد ، أنه ذو شخصية قويّة نافذة ، وكان رجلاً وكفى ، والحجّاج يفضّل أصحاب الشخصيات الهزيلة وأشباه الرجال ، وكان الخاسر الوحيد في عزل يزيد هي خُراسان ومَن كان يعيش في خُراسان من الناس ، والمصلحة العامة للمسلمين خاصة على كلّ حال !

وقبل أن يغادر يزيد خُراسان ، استشار حُضَيْنَ بن المُنْذِر الرَّقاشِيّ فقال له : « أَقِمْ واعْتَزِلْ واكتب إلى أمير المؤمنين ليُقَرِّكَ ، فانه حسن الحال فيك » قال : « نحن أهل بيتٍ قد بورك لنا في الطّاعة ، وأنا أكره الخِلاف » .

وقال يزيد لأهل بيته لمّا بلغه عزلُه : « مَنْ تَرَوْنَه الحجّاج يولّي خُراسان ؟ » ، قالوا : رجلاً من ثَقِيف . قال : « كلا ، ولكنه يكتب إلى رجل منكم بعهده ، فاذا قدمت عليه عزله وولّى رجلاً من قَيْس ، وأَخْلِقْ بقُتَيْبَة بن مُسْلِم » (١٧) .

وأخذ يتجهز ، ثم عاد إلى الحجّاج ، فحبسه سنة ست وثمانين الهجرية (١٨) (٧٠٥ م) ، فلم يخسر منصبه الرفيع حسب ، بل دخل السجن ضريبة لكفايته المتميِّزة وشخصيته القوية واعتداده برأيه وصونه لكرامته .

ب . في السِّجن :

قضى يزيد من سنة ست وثمانين الهجرية إلى سنة تسعين الهجرية (٧٠٧م) في سجن الحجّاج .

وحبسه الحجّاج ، لأنّ الناس قد فُتِنوا به ، فخشي الحجّاج أن

---

(١٧) ابن الأثير (٥٠٣/٤) .

(١٨) الطبري (٤٢٦/٦ وابن الأثير (٥٢٤/٤) .

يقودهم إلى الفتنة ، فيزعزع أركان الحجّاج والدولة .

ولو اقتصر الأمر على خوف الحجّاج من شعبية يزيد الطاغية التي تحفّزه على الثورة ضدّ الدولة ، لاقتصر الحجّاج على حبسه ، ولكن الحجّاج حبس يزيد وعذبه ، وسبب تعذيبه هو مطالبته بأموال المسلمين التي استأثر بها لنفسه وآل بيته وأصحابه وأعوانه ومَنْ يلوذ به دون سائر المسلمين . فقد أغرمه الحجّاج ستة آلاف الف درهم (١٩) ، فلما لم يدفع غرامته ، أمر الحجّاج بتعذيبه ليؤدي الذي عليه جبراً ، بعد أن امتنع عن أداء الذي عليه مختارا .

وكان يزيد يصبر صبراً حسناً على العذاب ، وكان ذلك مما يغيظ الحجّاج منه (٢٠) ، لذى كان يأخذ يزيد بسوء العذاب . وسأل الحجّاج يوماً أن يخفّف عنه العذاب على أن يدفع له كل يوم مئة الف درهم ، فان أدّاها وإلاّ عذّبه إلى اللّيل . وجمع يوماً مئة ألف درهم يشتري بها عذابه في يومه ، فدخل عليه الأخطل الشاعر ، فقال : (٢١)

أبا خالدٍ بادَتْ خُراسانُ بَعْدَكُمْ
وصاحَ ذوو الحاجات أين يزيد ؟
فلا مَطِرَ المَرْوانِ بَعْدَكَ مطْرَةً
ولا اخْضَرَّ بالمَرْوَين بَعْدَكَ عودُ (٢٢)
فما لسَرِيرِ المُلْكِ بَعْدَكَ بَهْجَةٌ
ولا لجَوادٍ بعد جودك جود

(١٩) الطبري (٤٤٨/٦) وابن الأثير (٥٤٥/٤ ووفيات الآعيان (٣٣٤/٥) .
(٢٠) الطبري (٤٤٨/٦) وابن الأثير (٥٤٥/٤) .
(٢١) ذكر ذلك ابن عساكر في تاريخه . والمشهور ان صاحب هذه الواقعة وهذه الأبيات هو الفرزدق ، وهذه الأبيات في ديوان زياد الأعجم ، انظر وفيات الأعيان (٣٢٣/٥) .
(٢٢) المروان والمروين : مرو الروذ ومرو الشاهجان ، تثنية مرو .

فأعطاه يزيد مئة الألف ، فبلغ ذلك الحجّاج ، فدعا به ، وقال : « يامَرْوزى ! (٢٣) أفيك هذا الكرم وأنت بهذه الحالة ؟ ! قد وهبت لك عذاب اليوم وما بعده » (٢٤) .

ودخل على يزيد الفرزدقُ في الحبس فقال :

أصْبَحَ في قَيْدِكَ السَّمَاحَةُ والجو دُ وحَمْلُ الدِّياتِ والافْضَال

فقال يزيد : « أتمدحني وأنا على هذه الحال ؟ ! » ، قال : « أصبتُكَ رخيصاً فاشتريتك » (٢٥) .

ومضت السّنون عجافاً ثقيلة طويلة الأيام ، حتى جاءت سنة تسعين الهجريّة ، ويزيد وقسم من اخوته في سجن الحجّاج ، يثقلهم القيد ويلهبهم التعذيب .

وخرج الحجّاج إلى (رُسْتَقاباذ) (٢٦) في حملة تأديبية للأكراد الذين غلبوا على إقليم (فارس) ، وخرج معه يزيد وإخوته عبد الملك والمُفضَّل في عسكره لامقاتلين بل مسجونين ، ومن الواضح أنّ إخراج أبناء المهلّب المسجونين هو لخوف الحجّاج من فرارهم من السّجن ، فأراد أن يكونوا معه في الحملة ليُشرف على حراستهم شخصياً ويحول دون فرارهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

---

(٢٣) مروزى : نسبة الى مدينة مرو حاضرة خراسان .

(٢٤) وفيات الأعيان (٣٢٣/٥) .

(٢٥) ديوان الفرزدق (٣١٤/٢) والشعر والشعراء (٣٥٠/١) ، وورد البيت في عيون الأخبار (٨٢/١) :

أصبَح في قيدك السماحةُ والجو د وحملٌ لمضلع الأثقال

(٢٦) رستقاباذ : موقع من أرض (دَسْتوا) ، وجاءت في معجم البلدان (٢٤٩/٤) : رُسْتَقباذ ، ودستوا : بلدة بفارس ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥٩/٤ ـ ٦٠) .

وجعل الحجّاج على يزيد وأخويه كهيئة الخندق ، وجعلهم في فُسطاط قريب منه ، ليشدّد عليهم رقابته الصّارمة ، وأخذ يعذبهم ويزيد صابراً محتسبا ، فقيل للحجّاج : إنّ يزيد رُمي بساقه بنشابة فثبت نصلُها فيه فهو لايمسّها إلاّ صاح ، فأمر الحجّاج أن يُعذّب في ساقه ، فلما فعلوا به ذلك صاح ، وأختهُ هند بنت المهلّب عند الحجّاج ، فلما سمعت صوته صاحت وناحت ، فطلّقها الحجّاج !!

ثمّ إنّ الحجّاج كفّ عن تعذيب يزيد وإخوته ، وأقبل يستأديهم المال الذي بذمّتهم ، وهم يعملون في التخلّص من سجنهم ، فبعثوا إلى مَرْوان ابن المهلّب وهو بالبَصْرَة ، يأمرونه أن يُضَمّر لهم الخيل ، ويُرِي الناسَ أنه إنما يريد بَيْعَها ، ويَعْرِضها على البيع ويُغلي بها لئلا تُشْتَرى ، لتكون عُدّةً إن هم قدروا على النجاة بأنفسهم من السِّجن ، ففعل ذلك مَرْوان ، وكان حَبِيْب بالبصرة يُعذّب أيضا .

وأمر يزيد أن يُصنع للحرس طعام كثير ، وأمر لهم بشراب ، فأكلوا وسُقوا ، فكانوا متشاغلين به .

ولبس يزيد ثياب طبّاخه ، ووضع على لحيته لحيةً بيضاء ، وخرج فرآه بعض الحرس فقال : « كأنّ هذه مِشْيَة يزيد ! » وجاء الحارس حتى استعرض وجههَ ليلاً . فرأى بياض اللّحية ، فانصرف عنه قائلا : « هذا شيخ ! » .

وخرج المُفضّل على أثره ، فلم يفطن له .

وجاءوا إلى سفنهم ، وقد هيّأوها في (البَطائح) (٢٧) ، وبينهم وبين

(٢٧) البطائح : ارض واسعة بين واسط والبصرة ، وكانت قديماً قرى متصلة وارضاً عامرة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٢١٥) و (٢/٢٢٢ ـ ٢٢٣) .

البصرة ثمانية عشر فَرْسخاً ، فلما انتهوا إلى السُّفن أبطأ عليهم عبد الملك وشُغِلَ عنهم ، فقال يزيد للمفضَّل : « اركبْ بنا فانه لاحق » ، فقال المفضّل وعبد الملك أخوه لأمه — وهي بَهْلة ، هنديّة : « لا والله ، لا أبرح حتى يجيىء ولو رجعتُ إلى السِّجن » .

وأقام يزيد حتى جاءهم عبد الملك بن المهلّب ، فركبوا عند ذلك السُّفن ، فساروا ليلتهم حتى أصبحوا . ولما أصبح الحرسُ علموا بهرب يزيد وأخويه ، فرُفع ذلك إلى الحجّاج .

وقال الفرزدق في هرب يزيد ومَنْ معه (٢٨) :

فلم أرَ كالرَّهْطِ الذين تَتَابَعوا
على الجِذْع والحراس غيرُ نيامِ
مَضَوا وهُمْ مُسْتَيْقِنون بأنَّهم
إلى قَدَرٍ آجالُهُمْ وحِمَامِ
وإنْ منهمُ (٢٩) إلاّ يُسَكِّن جَأشهُ
بِعَضْبٍ صَقِيْلٍ صارمٍ وحُسَامِ
فلما التقَوْا لم يلتَقوا بمنفَّهٍ (٣٠)
كبيرٍ ولا رَخْص العظام غلامِ
بمثلِ أبيهم حين تمّت لِدَاتُهُمْ
لخمسين قُلْ في جُرْأةٍ وتمام .

وفزع الحجّاج فزعاً عظيماً لهرب يزيد وصحبه من سجنه ، وهو الذي بالغ كثيراً في حراستهم ، وذهب وهمه أنهم ذهبوا قِبَل خُراسان ،

(٢٨) ديوان الفرزدق (٨١٦ — ٨١٧) .
(٢٩) في ديوان الفرزدق : وما منهم .
(٣٠) منفّه : الضعيف من العلّة .

فبعث البريد إلى قُتَيْبَة بن مُسْلِم يحذِّره قدومَهم ويأمره أن يستعدّ لهم ، وبعث إلى الوليد بن عبد الملك كتاباً يخبره فيه بهربهم ، وبعث إلى أمراء الثغور والكُوَر أن يرصدوهم ويستعدّوا لهم .

ولما دنا يزيد من (البطائح) من (مَوْقوع) (٣١) استقبلته الخيل قد هُيِّئَتْ له ولاخوته ، فخرجوا عليها ومعهم دليل من بني كَلْب ، فأخذ بهم على (السَّمَاوَة) (٣٢) .

وجاء مَنْ يُخبر الحجّاج بعد يومين من هرب يزيد بأنّه أخذ طريق الشام على طريق السَّمَاوة ، فبعث إلى الوليد بن عبد الملك يُعْلمُه .

ومضى يزيد حتى قدِم فِلَسْطين ، فنزل على وُهَيْب بن عبد الرحمن الأَزْدِيّ وكان كريماً على سليمان بن عبد الملك الذي كان يومذاك ولياً للعهد وأنزل بعض ثَقَله وأهله على سُفيان بن سليمان الأَزْدِيّ .

وجاء وُهَيْب بن عبد الرحمن الأَزْدِي حتى دخل على سليمان بن عبد الملك ، فقال : « هذا يزيد بن المهلّب وإخوته في منزلي ، وقد أتوك هُرّاباً من الحجّاج مُتَعَوِّذين بك » . قال : « فائتني بهم ، فهم آمِنون لا يُوْصَل إليهم أبداً وأنا حيّ ! » فجاء بهم حتى أدخلَهم عليه ، فكانوا في مكان آمن .

وكتب الحجّاج إلى الوليد بن عبد الملك : « إنّ آل المهلّب خانوا أمان الله وهربوا مني ولحقوا بسليمان » .

وكان الوليد قد حذرهم وظنّ أنهم يأتون خُراسان للفتنة بها ، فلما علم أنهم عند أخيه سليمان سكنَ بعض ما به وطار غضباً للمال الذي ذَهَبوا به .

وكتب سليمان إلى الوليد : « إن يزيد بن المهلّب عندي وقد آمنته ، وإنما

---

(٣١) موقوع : ماء بناحية البصرة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٢٠٠) .

(٣٢) السَّماوة : ماء بالبادية ، وبادية السماوة هي البادية التي بين الكوفة والشام ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/١٢٠) .

عليه ثلاثة آلاف ألف ، كان الحجّاج أغرَمَهم ستة آلاف ألف ، فأدّوْا ثلاثة آلاف ألف ، وبقي ثلاثة آلاف ألف ، منهن عليّ » .

فكتب الوليد إلى سليمان : « لا والله ، لا أُؤمِّنه حتى تبعث به إليّ » ، فكتب إليه : « لئن أنا بعثتُ به إليك لأجيئنّ معه ، فأنشدُك الله أن تفضَحني ولا أن تُخفِرني » ، فكتب اليه : « واللهِ لئن جئتَني لا أُؤمِّنه » .

وقال يزيد حين رأى تصاعد حدّة الرسائل والخلاف بين الوليد وسليمان : « ارسلْني إليه فواللهِ ما أُحبُّ أن أُوقع بينه وبينك عداوةً ولا أن يتشاءم الناس بي لكما ، واكتب بألطف ما قدرتَ عليه » .

وكتب سليمان إلى الوليد : « لعبد الله الوليد أمير المؤمنين ، من سليمان ابن عبد الملك ، أما بَعْدُ يا أميرَ المؤمنين ! فوالله إن كنت لأظن لو استجار بي عدوٌّ قد نَابَذَكَ وجاهَدَكَ فأنزلتهُ وأَجَرْتهُ أنك لاتُذلّ جاري ، ولا تُخْفِر جواري ، بَلْه لم أَجِرْ إلاّ سامعاً مطيعاً حَسَنَ البلاء والاثَر في الاسلام هو وأبوه وأهل بيته ؛ وقد بعثت به إليك ، فان كنتَ إنما تَغْزو قطيعَتي والاخفار لذمّتي ، والابلاغ في مساءتي ، فقد قدرتَ إن أنتَ فعلت . أعيذُك بالله من احتراد (٣٣) قطيعَتي ، وانتهاكِ حُرْمتي وتركِ بِرّي وصِلَتي ، فوالله يا أميرَ المؤمنين ما تَدْري ما بقائي وبقاؤك ، ولا متى يُفَرِّق الموتُ بيني وبينَك ! فان استطاع أميرُ المؤمنين أدام اللهُ سرورَه ألاّ يأتي علينا أجل الوفاة الاّ وهو لي وصل ، ولحقّي مُؤَدٍ ، وعن مساءتي نازع . فَليَفعَلْ ! والله يا أميرَ المؤمنين ، ما أصبحتُ بشيءٍ من أمر الدنيا بعد تَقْوَى الله فيها بأَسَرَّ مني برضاك وسرورك ، وإنَ رضاكَ مما ألتمسُ به رضوانَ الله ، فانْ كنتَ يا أميرَ المؤمنين تريد يوماً من الدّهر مَسرّتي

(٣٣) الاحتراد : من الحرد ، وهو القصد ، وفي وفيات الأعيان (٣٣٦/٥) : اختيار .

وصِلَتي وكَرامَتي وإعظامَ حقّي فتجاوز لي عن يزيد ، وكل ما طلَبْته به فهو عليَّ » .

وأرسل سليمانُ يزيدَ إلى الوليد ، وأرسل معه ابنَه أيوّب ، وكان الوليد قد أمره أن يبعث به مُقَيَّدا ، فقال سليمان لابنه : « إذا دخلتَ على أمير المؤمنين ، فادخلْ أنت ويزيد في سلسلة » ، ففعل ذلك .

ولما رأى الوليد ابنَ أخيه في سلسلة قال : « لقد بلغنا من سليمان » .

ودفع أيوّب كتاب أبيه إلى عمّه وقال له : « يا أمير المؤمنين ! نفسي فداؤك ، لا تُخْفر ذِمّة أبي ، وأنت أحقّ مَنْ مَنَعَها ، ولا تقطع منا رجاءَ مَن رجا السَّلامة في جوارنا لمكاننا منكَ ، ولا تُذِلّ مَنْ رجا العزّ في الانقطاع إلينا لعزنا بك » .

فلما قرأ الوليد كتاب سلمان قال : « شققنا على سليمان » .

وتكلم يزيد ، فَحَمِد الله وأثنى عليه وصلّى على نبيِّه صلّى الله عليه وآله وسلّم ، ثم قال : « يا أمير المؤمنين ! إنّ بلاءكم عندنا أحسنُ البَلاء ، فمن يَنْسَ ذلك فلَسنا ناسيه ، ومَنْ يَكفُر فلَسنا كافريه . وقد كان من بلائنا أهل البيت في طاعتكم والطّعن في أعين أعدائكم في المواطِن العظام في المَشارق والمغارب ما إنّ المِنّة علينا فيها عظيمة » . فقال الوليد ليزيد : « اجْلِس . . . فجلس . فآمَنَهُ . فرجع يزيد إلى سليمان .

وكتب الوليد إلى الحجّاج : « إني لم أصِل إلى يزيد وأهل بيته مع سليمان ، فاكفُفْ عنهم » فكفّ الحجّاج عنهم .

وكان أبو عُيَيْنَة بن المهلّب عند الحجّاج عليه ألف ألف ، فتركها وكفّ عن حبيب بن المهلّب .

وأقام يزيد بن المهلب عند سليمان يهدي له الهدايا ويصنع له الأطعمة ، وكان لا يأتي يزيد هديّةٌ إلا بعث بها إلى سليمان . ولا يأتي سليمانَ هديّةٌ إلاّ

بعث بنصفها إلى يزيد ، وكان لا تعجبه جارية إلاّ بعث بها إلى يزيد (٣٤) .

إن قصة هرب يزيد وإخوته من سجن الحجّاج ، ملحمة من الملاحم التي إن دلّت على شيء ، فانما تدلّ على شجاعته الفائقة وتغلغل روح المغامرة فيه ، إذ ليس من السهل على أي إنسان أن يهرب من سجن الحجّاج ، لأنّ عقوبته التي لايتردّد الحجّاج في تنفيذها لحظة واحدة هي الاعدام ، فكيف إذا كان هذا الانسان يزيد بن المهلّب الذي يخافه الحجّاج ويحاذر انتقاضه ، مما جعل الحجّاج يبالغ أشدّ المبالغة في تشديد الحراسة على يزيد في سجنه واختيار الحرّاس الموثوق بهم لحراسته ، ونقل يزيد من سجنه إلى حيث يسير الحجّاج في السِّلم والحرب ليبقى تحت إشرافه المباشر ، ومع كلّ هذه الحيطة وهذا الحذر . هرب يزيد غير مكترث بالعواقب ولا هيّاب لنتائج الهرب ، مع علمه بعواقب عمله ونتائجه دون شك .

لقد كان شجاعاً حقاً ، جريئاً في شجاعته ، مغامراً في جُرأته ، لايخاف أحداً ولا يخشى شيئاً ، غير خالق الناس والاشياء .

وهذه الملحمة قصّة واقعية تمثّل كثيراً من المزايا العربية العريقة : الشجاعة ، والاقدام ، والجرأة ، وحب المغامرة ، واجتياز الصحراء الشاسعة ، والوفاء ، والدفاع عن المستجير ، وتقاليد الجار ، والكرم والجود ، والمروءة .

ج ــ في السلْطة ثانية :

مات الحجّاج بن يوسف الثقفي في سنة خمس وتسعين الهجريّة (٣٥) (٧١٣ م) ، ومات الوليد بن عبد الملك بن مروان سنة ست وتسعين الهجرية (٣٦) (٧١٤ م) ، فتولى الخلافة سليمان بن عبد الملك بعد وفاة أخيه الوليد ،

---

(٣٤) أنظر التفاصيل في الطبري (٤٤٨/٦ ــ ٤٥٣) وابن الأثير (٥٤٥/٤/٥٤٧) وانظر وفيات الأعيان (٣٢٢/٥) و (٣٣١/ ــ ٣٣٦) .
(٣٥) الطبري (٤٩٢/٦) وابن الأثير (٥٨٣/٤) والعبر (١١٢/١) .
(٣٦) الطبري (٤٩٥/٦) وابن الأثير (٨/٥ والعبر (١١٤/١) .

فأقبل الخير على يزيد بن المهلّب واليُسر ، وزال عنه الشرّ والعُسر ، إذ تولّى الخلافة صديقه الصّدوق الذي كان لايطيع في يزيد أحداً يريده بشر حتى ولو كان الخليفة المتوج بالذّات .

وبادر سليمان بن عبد الملك في هذه السنة إلى عزل يزيد بن أبي مُسْلم (٣٧) عن العراق ، واستعمل يزيد بن المهلب على العراق . وجعل صالح بن عبد الرحمن على الخَراج . وأمره أن يقتل آل أبي عَقيل ويبسط عليهم العذاب ، فقدم صالحُ العراقَ على الخراج ويزيد على الحرب ، فبعث يزيد أخاه زياد ابن المهلّب على (عُمان) ، وأمره أن يكاتبَ صالحاً وأن يبدأ باسمه ، فأخذ صالح آل أبي عَقيل — وهم قوم الحجّاج — فكان يعذّبهم ، وكان يلي عذابهم عبد الملك بن المهلّب (٣٨) .

وكان الوليد قد عزم على خلع أخيه سليمان عن ولاية العهد ، ويجعل وليّ عهده ولده عبد العزيز بن الوليد ، وتابعه على ذلك الحجّاج وقُتَيْبَة بن مُسْلم الباهليّ (٣٩) . لهذا انتقم منهما سليمان بعد توليه الخلافة .

وكان قتيبة قد خاف سليمان وخاف أن يولّي يزيد بن المهلّب خُراسان ، فكتب قتيبة إلى سليمان كتاباً يُهنّئه بالخلافة ويذكر بلاءه وطاعته لعبد الملك والوليد وأنّه له على مثل ذلك إنْ لم يعزله عن خُراسان ، وكتب إليه كتاباً آخر يُعْلمه فيه فتوحه ونكايته وعِظَمَ قدره عند ملوك العجم وهيبته في صدورهم وعِظَمَ صولته فيهم . ويذمّ آل المهلّب ويحلف بالله لئن استعمل يزيدَ على خُراسان ليخلعنّه . وكتب كتاباً ثالثاً فيه خلعه ، وبعث الكتب الثلاثة مع رجلٍ من باهلة — قبيلة قتيبة — وقال له : « ادفع الكتاب الأوّل إليه ، فإن كان يزيد حاضراً فقرأه ثم ألقاه إلى يزيد فادفعْ إليه هذا الثاني ،

(٣٧) انظر سيرته في وفيات الأعيان (٣٥٣/٥ — ٣٥٦ .
(٣٨) الطبري (٥٠/٦ وابن الأثير (١١/٥) ووفيات الأعيان (٣٣٨/٥) .
(٣٩) الطبري (٥٠٦/٦ — ٥٠٧) وابن الأثير (١٢/٥) ووفيات الأعيان (٣٣٨/٥) .

فان قرأه ودفعه إلى يزيد فادفع إليه هذا الثالث ، فان قرأ الكتاب الأول ولم يدفعه إلى يزيد فاحبس الكتابين الآخرين » .

وقدم رسول قتيبة دمشق ، فدخل على سليمان وعنده يزيد بن المهلب ، فدفع إليه الكتاب الأول ، فقرأه وألقاه إلى يزيد . ودفع إليه الكتاب الآخر ، فقرأه وألقاه إلى يزيد . وأعطاه الكتاب الثالث ، فقرأه فتغير لونه وختمه وأمسكه بيده (٤٠) .

وقد قُتل قتيبة بن مُسْلم الباهلي بعد ذلك كما هو معروف .

وقبل أن يرحل يزيد من دمشق إلى العراق ، قدّر أنّ العراق قد أخربها الحجّاج ، وأنه رجاء أهل العراق يتوقعون منه الخير الكثير ، وأنّه متى قدمها وأخذ الناس بالخَرَاج وعذّبهم عليه صار مثل الحجّاج يدخل على الناس الحرب والشقاء ، ويعيد عليهم تلك السجون والمعتقلات التي قد عافاهم الله منها ، ومتى لم يأت سليمان بمثل ماجاء به الحجّاج لايقبل منه ويحسبه مقصّراً في أداء واجباته الاداريّة .

ووجد يزيد مخرجاً لنفسه ، فتنفس الصّعداء !

وأتى سليمان فقال له : « أدلّك على رجلٍ بصيرٍ بالخراج توليه إياه ، وهو صالح بن عبد الرحمن مولى بني تَميم » ، فقبل سليمان مشورة يزيد .

وأقبل يزيد إلى العراق ، وكان صالح قد قدم العراق قبل قدوم يزيد ونزل مدينة (واسط) . ولما قدم يزيد خرج الناس يتلقّونه ، ولم يخرج صالح حتى قرب من المدينة ، فخرج إليه وبين يديه أربعمائة من أهل الشّام ، فلقي يزيد وسايره ، فلما دخل المدينة قال له صالح : « قد فرّغت لك هذه الدار » ؛

---

(٤٠) انظر التفاصيل في الطبري (٥٠٦/٦ ـ ٥٠٨) وابن الأثير (١٢/٥) ووفيات الأعيان (٣٣٨/٥) ، وانظر سيرة قتيبة بن مسلم الباهلي في كتابنا : قادة فتح بلاد ماوراء النهر .

فنزل يزيد ، ومضى صالح إلى منزله .

وضيّق صالحٌ على يزيد ، فلم يملّكه شيئاً ولم يمكّنه من شيء . واتّخذ يزيد ألف خوان يُطْعم الناسَ عليها ، فأخذها صالح ، فقال يزيد : « اكْتُبْ ثمنها عليّ » . واشترى يزيد متاعاً وكتب صكّاً بثمنه إلى صالح ، فلم يقبله صالح !

وضجر يزيد بالعراق ، وكان سليمان ولاه العراق ولم يولّه خُراسان ، وضيّق عليه صالح فلم يتّصل معه إلى شيء !

ودعا عبد الله بن الأهْتَم وقال له : « أنا فيما ترى من الضّيق ، وقد ضجرت منه ، وخُراسان شاغرة ، فهل من حيلة ؟ » .

واقترح ابن الأهتم على يزيد أن يسرّحه إلى أمير المؤمنين ليسعى في ضمّ خراسان إليه .

وسار ابن الأهتم إلى سليمان ، فأقنعه أن يضم خُراسان إلى يزيد ، فقال سليمان : « العراق أحبّ إليه من خُراسان » ، فقال ابن الأهتم : « قد علمتُ ، ولكن تُكرهه فيستخلف على العراق ويسير » .

وكتب سليمان عهد يزيد إلى خُراسان وسيّره مع ابن الأهتم ، فأتى يزيدَ ، فأمر بالجهاز للمسير ساعته ، وقدّم ابنه مَخْلَداً إلى خُراسان من يومه ، ثم سار يزيد بعده ، واستخلف على واسط الجرّاح بن عبد الله الحكَميّ ، واستعمل على البصرة عبد الله بن هِلال الكِلابيّ ، وجعل أخاه مَرْوان بن المهلّب على حوائجه وأموره بالبصرة ، وكان أوثق إخوته عنده ، واستخلف بالكوفة حَرْمَلة بن عُدَيْر التَّجيبيّ أشهراً ثمّ عزله ، وولّى بشير بن حيّان النَّهْدي .

وكانت قبائل قَيْسٍ تزعم أنّ قُتَيْبَة بن مُسْلِم الباهِليّ لم يَخْلَع سليمان بن عبد الملك ، فلما سار يزيد إلى خُراسان أمره سليمان أن يسأل عن

قتيبة ، فان أقامت قيس البيّنة أنّ قتيبة لم يَخْلع أن يقيّد وَكيع بن حسّان ابن أبي سُود التّميميّ قاتل قَتَيْبَة بن مُسْلِم به .

ولما وصل مَخْلَد بن يزيد بن المهلّب (مَرْو) أخذ وَكيعاً فحبسه وعذّبه وأخذ أصحابه وعذّبهم قبل قدوم أبيه ، وكانت ولاية وَكيع خُراسان تسعة أشهر أو عشرة أشهر . ثم قدم يزيد بن المهلّب خراسان في هذه السنة ، فأدنى أهل الشّام وقوماً من أهل خُراسان ، فقال عبد الملك بن سلام السَّلُوليّ يشكر يزيد نيابة عن الذين قرّبهم وأصالة عن نفسه :

مازال سيْبُكَ يايزيد بحوْبَتي
حتى ارتويتُ ، وَجُودُكُمْ لايُنْكَرُ
أنت الرّبيعُ إذا تكون خَصَاصةٌ
عاشَ السَّقيمُ به وعاش المُقْتِرُ
عَمّت سحابَتُهُ جميعَ بلادِكم
فَرَوَوْا وأغدَقَهُم سَحَابٌ مُمْطِرُ
فسقاكَ ربّك حيثُ كنتَ مَخيلةً
ريّاً سَحَائِبُها تَروحُ وتُبكِرُ

وقال نَهَار بن تَوْسِعة يلوم يزيد أصالة عن نفسه ونيابة عن الذين لم يقربهم :

وما كنّا نُؤمّلُ من أميرٍ
كما كنّا نُؤمّل من يزيدِ
فأخْطأ ظَنُّنا فيه وقِدْماً
زَهِدْنا في معاشَرَةِ الزّهيدِ
إذا لم يُعْطنا نَصَفاً أميرٌ
مَشَيْنا نَحْوَهُ مِثْل الأسُودِ
فمهلاً يا يَزِيدُ أَنِبْ إلينا
ودَعْنا من مُعَاشَرةِ العبيدِ

نجيئ فـلا نـرى إلاّ صُـدوداً
على أنّـا نُـسَلِّـم مـن بَـعيـد
ونَـرجـعُ خـائبيـنَ بلا نوالٍ
فما بالُ التجهُّـمِ والصُّدُود ! (٤١)

ومن الواضح أن يزيد قرّب المخلصين للدولة الذين لم ينغمسوا في الفتنة ولا لوثوا أيديهم بالدماء ، فأرضى قوماً وأسخط آخرين ، ولم يكن يزيد في تقريبه مَنْ قرّب وإبعاده مَنْ أبْعَد ، إلاّ رجل دولة يضع المصلحة العليا للدولة فوق كلّ اعتبار .

لقد كان يزيد موضع ثقة سليمان الكاملة ، فقد جمع له العراقَيْن(٤٢) وامتدّت ولايته فشملت المشرق الاسلامي كلّه ، يولي على أقاليمه مَنْ يشاء ، ويعزل مَنْ يشاء ، فكان في عهد سليمان من ألمع أمراء الدولة وأقربهم إلى الخليفة .

ولم يقصر يزيد في النهوض بواجبه إدارياً في استعادة الأمن والاستقرار وجمع الصفوف وتوحيدها ، وقائداً في استعادة الفتح كما مرّ بنا في الحديث عن فتوحه ، ولكن أيام عرسه انقضت بسرعة بموت سليمان ، فذهب سُمره وأقبلت عليه ثانية أيام العسر .

د ـ في السَّجْن ثانيةً :

كان ليزيد سنة ثمان وتسعين الهجرية (٧١٦ م) نشاط عسكري لامع في جُرْجان وطَبَرِستان .

وفي سنة تسع وتسعين الهجريّة (٧١٧ م) تُوفي سليمان بن عبد الملك (٤٣) ،

(٤١) انظر التفاصيل في الطبري (٥٢٣/٦ ـ ٥٢٩) وابن الأثير (٢٣/٥ ـ ٢٦) وانظر وفيات الأعيان (٣٣٨/٥ ـ ٣٤١) والمعارف (٣٦١) و (٤١٦) .
(٤٢) تاريخ خليفة بن خياط (٣١٧/١) .
(٤٣) الطبري (٥٤٦/٦) وابن الأثير (١٧/٥) والعبر (١١٨/١) .

فخلفه عمر بن عبد العزيز بن مَرْوان رضى الله عنه .

وكان يزيد قد كتب إلى سليمان بن عبد الملك يبشّره باستعادة فتح جُرْجان وطبرستان ويذكر له : « وقد صار عندي من خُمس ما أفاء اللهُ على المسلمين بعد أن صار إلى كلّ ذي حقٍ حقُّه من الفَيءِ والغنيمة ستة آلاف ألف درهم ، وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله » ، فنصحه كاتبه ألاّ يكتب بتسميه المال حتى لايُستَجَّل في السجلات ، فاذا ولي خليفة بعد سليمان طالب به ، وإن ولي مَنْ يتحامل عليه لم يَرْض بأضعافه ، ولكنّ يزيد رفض النصيحة وأمضى الكتاب (٤٤) .

وبادر عمر بن عبد العزيز إلى عزل يزيد عن العراق وخُراسان ، ووجّه على البَصْرة وأرضها عَدِيّ بن أرْطَاة الفزَاريّ ، وبعث على الكوفة وأرضها عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب العَدَويّ القُرَشِيّ من بني عَدِيّ بن كَعْبَ (٤٥) رهط عمر بن الخطاب رضى الله عنه من قُرَيش .

وكتب عمر بن عبد العزيز سنة مئة الهجرية (٧١٧ م) إلى عَدِيّ بن أرْطَاة أمير البصرة يأمره بانفاذ يزيد بن المهلب موثقاً ، وكان عمر قد كتب إلى يزيد أن يستخلف على عمله ويُقْبِل إليه ، فاستخلف يزيد ابنه مَخْلَداً وقدم من (خُراسان) حتى نزل مدينة (واسِط) ، ثمّ ركبَ السُّفن يريد البصرة ، فبعث عَدِيّ بن أرطَاة موسى بن الوَجِيه الحِمْيَرِيّ ، فلحقه في نهر (مَعْقِل) عند الجسر بالقرب من البصرة ، فأوثقه وبعث به إلى عمر بن عبد العزيز في دمشق (٤٦) .

ولم يكن عمر بن عبد العزيز ممّن يرضى بأنصاف الحلول أو يقنع بغير الحق ، فدعا يزيد وسأله عن الأموال التي كتب بها إلى سليمان ، فاعتذر :

---

(٤٤) الطبري (٦/٥٤٤ ـ ٥٤٥) .

(٤٥) الطبري (٦/٥٥٤) وابن الأثير (٥/٤٣) وانظر وفيات الأعيان (٥/٣٤١) .

(٤٦) انظر التفاصيل في الطبري (٦/٥٥٦ ـ ٥٥٧) وابن الأثير (٥/٥٨ ـ ٥٩) .

بأنه كتب ما كتب إلى سليمان ليسمّع الناس به ، وسليمان لايأخذه بما كتب ، والواقع أن ما كتب فيه مبالغة ! ولكنّ عمر أصرّ على أن يدفع يزيد المال إلى بيت مال المسلمين أو يعود إلى محبسه .

ولم ينفع ما بذله مَخْلَد ابنه من جهد عند عمر بن عبد العزيز لانقاذ أبيه يزيد من الحبس ، كما لم يَنفع يزيدَ ما بذله أصدقاؤه وأحباؤه في انقاذه من الحبس ، فقد كان قرار عمر بن عبد العزيز نهائياً ، فإمّا المال كاملاً ، وإما السجن ، ولا ثالث لهذين المسلكين .

لقد نُصِح يزيد بألاّ يسجّل على نفسه في كتابه إلى سليمان هذا المبلغ الضخم من المال ، فلم ينتصح ، فعانى ما عانى في السجن ، وتحمّل ما تحمل في الهرب من السجن ، ودفع حياته ثمناً في حرب عقيمة في النهاية .

٢ ـ الجواد

كان يزيد يحبّ هذا المال حبّاً جما ، ولكن لم يكن يكتنزه لنفسه ، بل يجود به على الناس نَقْداً وطعاماً وثراباً وثياباً وهدايا ، فمن المعروف أنه لم يشيّد له داراً يأوى اليها ، واقتناء الدار للسكنى من أهم ما يحرص عليه الناس جميعاً ، فله الأسبقية بالنسبة للذين يحبّون جمع المال ، وهو السبيل الأول لانفاق المال .

ولو كان يزيد يحب المال من أجل المال ، لامن أجل الجود به ، لكان له دار يرتاح بها ويُريح ، ولكنه حرم نفسه حتى من متعة اقتناء الدار .

قيل ليزيد : مالكَ لاتبني ؟ ! قال : « منزلي دار الامارة أو الحَبْس»(٤٧) وقيل له : لِمَ لا تبني بالبصرة دارا ؟ ! فقال : « لأني لا أدخلها إلاّ أميراً أو أسيرا ، فان كنتُ أسيراً فالسجن داري ، وإن كنتُ أميراً فدار الامارة

(٤٧) عيون الأخبار (٢٣٦/١) والعقد الفريد (٢٢٣/٦) .

داري » (٤٨) . وقال بعض جلساء يزيد له : لِمَ لاتتّخذ لك دارا ! ؟ فقال : « وما أصنع بها ، ولي دار حاصلة مجهّزة على الدّوام ؟ » ، فقال له : وأين هي ؟ ! فقال : « إنْ كنتُ متولّياً فدار الامارة ، وإن كنتُ معزولاً ، فالسّجن » (٤٩) .

لقد كان يزيد يحبّ ثناء الناس عليه ، والكرم هو الذي يطلق الألسنة بالثناء من عقالها ، وينطق الذين دأبوا على السكوت . قال يزيد يوماً : « والله للحياة أحبّ من الموت ، والثناء الحسن أحبّ إليّ من الحياة ، ولو أني أُعطيتُ ما لم يُعْطَهُ أحدٌ لأحببتُ أن يكون لي أُذن أسمع بها غداً ما يُقال فيّ إذا ميّتّ » (٥٠) .

ويبدو أنه لم يكن يحب السُّلطة إلاّ من أجل أن تعينه على جمع المال والجود به على الناس ، فكان ينتقل من الأوج أميراً إلى السجن أسيراً لمحاسبته على المال الذي أنفقه على الناس .

وقد أجمع المؤرخون على أنه لم يكن في دولة بني أُميّة أكرم من بني المهلّب ، كما لم يكن في دولة بني العبّاس أكرم من البرامكة (٥١) ، وكان يزيد بلامراء أكرم بني المهلّب على الأطلاق .

اتخذ يزيد ألف خوان يُطعِم النّاس عليها (٥٢) كل يوم ، ومرّ في طريق البصرة بأعرابيّة فأهدت إليه عَنْزاً ، فقبلها وقال لابنه معاوية : « ما عندكَ من نفقة ؟ » قال : « ثمانمائة درهم » ، قال : « ادفعها إليها » ، قال : « إنها لا تَعْرِفُك ويرضيها اليسير » ، قال : « إن كانت لاتعرفني ، فأنا

(٤٨) عيون الأخبار (٣١٢/١)
(٤٩) وفيات الأعيان (٣٣٧/٥) .
(٥٠) وفيات الأعيان (٣٢٥/٥) .
(٥١) وفيات الأعيان (٣٢٦/٥) .
(٥٢) الطبري (٥٢٤/٦) وابن الأثير (٢٣/٥) .

أعرف نفسي ، وإن كان يرضيها اليسير ، فأنا لاأرضى إلاّ بالكثير » (٥٣) .

وقدم على يزيد وفد من قُضَاعة ، فقال رجل منهم :

واللهِ ما نَدْري إذا ما فاتَنَا
طَلَبٌ إليكَ مَنْ الذي نَتَطَلَّبُ
ولقد ضَرَبْنا في البلاد فلم نَجِدْ
أحداً سواك إلى المكارِم يُنْسَبُ
فاصْبِرْ لعادَتِنا التي عَوَّدْتَنَا
أو لا فَأَرْشِدْنا إلى مَنْ نَذْهبُ ؟

فأمر له يزيد بألف دينار ، فلما كان العام المقبل وفد عليه فقال :

مالي أرى أبوابَهم مَهْجُورَةً
وكأنّ بابَك مَجْمَعُ الأسواقِ (٥٤)
حابوكَ أم هابوكَ أم شاموا النّدى
بيدَيْكَ فاجتمعوا من الآفاقِ
إني رأيتك للمكارم عاشقاً
والمكْرُمات قليلة العُشّاقِ

فأمر يزيد بعشرة آلاف درهم (٥٥) .

ولما هرب يزيد من الحجّاج قاصداً سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ

---

(٥٣) العقد الفريد (١/٣٠٦) .

(٥٤) مكان هذا الشعر في الأمالى :

يُربّ الذي يأتى من الخيرانه ... اذا فعل المعروف زاد وتمّما
وليس كبانٍ حين تمّ بناؤه ... تتبعه بالنقض حتى تهدّما

فأعطاه الفي دينار ، ثم اتاه في العام الثالث فقال :

إذا استمطروا كانوا معازير في الندى
يجودون بالمعروف عَوداً على بد

فأعطاه ثلاثة آلاف دينار ، نقلاً عن هامش (٢) من العقد الفريد (١/٣٠٥) .

(٥٥) العقد الفريد (١/٣٠٥ ـ ٣٠٦) ووفيات الأعيان (٥/٣٢٥ ـ ٣٢٦) .

بمدينة (الرَّمْلة) الفلسطينيّة ، اجتاز طريقه إلى أرض الشّام على أبيات للأعراب ، فقال لغلامه : « استسقنا من هؤلاء لبناً » ؛ فأتاه بلبن فشربه ، فقال : « أعْطِهِمْ ألف درهم » ، فقال الغلام : « إنّ هؤلاء لايعرفونك » ، قال : « لكنني أعرف نفسي ! أعطهم ألف درهم » ، فأعطاهم .

وحجّ يزيد ، فطلب حلاقاً ، فجاء وحلق رأسه ، فأمر له بألف درهم ، فتحيّر الحلاّق ودَهش ، فقال : « بهذه الألف أمضي إلى أُمّي فلانة فأشتريها ، فقال : « أعطوه ألفين آخرين » .

وكان سعيد بن عمرو بن العاص مواخياً ليزيد ، فلما كان في حبس عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، منع عمر النّاس من الدخول إليه ، فأتاه سعيد وقال : « يا أمير المؤمنين ! لي على يزيد خمسون ألف درهم ، وقد حُلْتَ بيني وبينه ، فان رأيت أن تأذن لي فأقتضيه » ، فأذن له . ودخل سعيد على يزيد ، فَسُرّ به يزيد وقال : « كيف وصلتَ إليّ ؟ ! » ، فأخبره سعيد ، فقال : « والله لا تخرج إلاّ وهي معك » ، فامتنع سعيد ، فحلفَ يزيد ليقبضَنّها ، فوجّه إلى منزله حتى حُمِل الى سعيد خمسون ألف درهم .

وفي ذلك قال بعض الشعراء :

فلم أرَ محبوساً من النّاس ماجداً
حبَا زائراً في السِّجن غير يزيد
سعيد بن عمرو إذ أتاهُ أجاره
بخمسين ألفاً عُجِّلت لسعيد (٥٦)

وباعَ وكيل يزيد بطيخاً جاءه من بعض أملاكه بأربعين ألف درهم ،

(٥٦) وفيات الأعيان (٣٢٤/٥) وعيون الأخبار (٣٤٣/١ ـ ٣٤٤) ، والشاعر الذي وصف كرم يزيد هو عَدِيّ بن الرّقاع .

فبلغ ذلك يزيد ، فقال له يزيد : « تركتنا بقَالين ! أما كان في عجائز الأَزْد مَنْ تقسمه فيهنّ !! » ، وغضب غضباً شديدا (٥٧) .

ومدحه عمر بن لجأ بشعرٍ فقال :

آل المهلّب قوم إن نسبتهمُ
كانوا المكارِم آباءً وأجدادا
كم حاسدٍ لهمُ يَعْيَا بفضلهمُ
وما دنا من مساعيهم ولا كادا
إنّ العَرانِيْن تلقاها مُحَسَّدَةً
ولا ترى للئام النّاس حُسّادا
لو قيل للمجدِ : حِدْ عنهمْ وخلِّهمُ
بما احتكمتَ من الدنيا لما حادا
إنّ المكارمَ أرواحٌ يكون لها
آل المهلّب دون الناس أجسادا (٥٨)

وقال سليمان بن عبد الملك لموسى بن نُصَيْرٍ : « اغرم ديتَك خمسين مرّة » ، قال : « ليس عندي ما أغرم » قال : « والله لتغرمَنّ ديّتك مئة مرّة » ، فقال يزيد : « أنا أغرمها عنه يا أمير المؤمنين » ، قال : « اغرمْ ! » ، فغرمها عنه مئة ألف درهم (٥٩) .

واستعمل الوليد بن عبد الملك على المدينة المنورة عثمانَ بن حَيّان المُرّي وأمره بالغِلْظَة على أهل الظِّنَّة ، فلما استُخلف سليمان أخذه بألفي ألف درهم . واجتمعت القَيسيَّة في ذلكَ ، فتحملوا شَطْرَها وضاقوا ذَرْعاً بالشَّطْر الثاني . ووافق ذلك استعمالُ سليمان على العراق يزيدَ ،

(٥٧) وفيات الأعيان (٣٢٥/٥) .
(٥٨) وفيات الأعيان (٣٢٥/٥) .
(٥٩) العقد الفريد (٣٠٣/١) .

فقال عمر بن هُبَيْرَة : « عليكم بيزيد بن المُهلّب ، فما لها أحد غيره » . ورحلوا إلى يزيد وفيهم عمر بن هُبَيْرَة والقَعْقَاع بن حَبيب والهُذَيْل ابن زُفَر بن الحارث حتى انتهوا إلى رُواق يزيد . قال يحيى بن أَقْتَل – وكان حاجباً ليزيد ، وكان رجلاً من الأَزْد : فاستأذنتُ لهم ، فخرج يزيد إلى الرُّواق ، فَقَرَّبَ ورحَّب ، ثم دعا بالغداء ، فأتُوا بطعام ما أنكروا منه أكثرُ مما عَرفوا ، فلما تغدَّوْا تكلّم عثمان بن حَيّان وكان لسِناً مُفوّها وقال : زادكَ الله في توفيقك أيها الأمير ! إن الوليد بن عبد الملك وجّهني إلى المدينة عاملاً عليها ، وأمرني بالغِلْظَة على أهل الظِّنة . . . . . وإنّ سليمان أغرمني غُرماً والله مايَسعه مالي ولا تحمله طاقتي ، فأتيناكَ لتَحْمِلَ من هذا المال ما خفّ عليك ، وما بقي والله ثقيل عليَّ ». وتكلّم كل مَنْ حضر بما حضره . فقال يزيد : مَرْحباً بكم وأهلاً ! إنّ خير المال ما قُضِيَت فيه الحقوق ، وحملت به المغارم ، وإنما لي من المال ما فضل عن إخواني ، وايم الله ، لو علمت أنّ أحداً أملأ بحاجتكم مني لهديتكم إليه ، فاحتكموا وأكثروا ! فقال عثمان بن حَيّان : النِّصْف ، أصلح الله الأمير ! قال : نَعَم ، وكرامة ، اغدوا على مالكم فخذوه ، فشكروا له وقاموا وخرجوا . فلما صاروا على باب السُّرادق ، قال عمر بن هُبَيْرَة : قبّحَ الله رأيَكم ! والله ما يُبالي يزيد أنصفَها تحمّل أم كلَّها ، فمن لكم بالنِّصف الباقي ! ؟ قال القوم : هذا والله لرأي . وسمع يزيد مناجاتهم ، فقال لحاجبه : انظر يا يحيى إنْ كان بَقي على القوم شيءٌ فليرجعوا ، فرجعوا إليه ، وقالوا : أقِلْنَا ! قال : قد فعلتُ . قالوا : إن رأيتَ أن تحملَها كلَّها فأنت أهلُها ، وإن أبيتَ فما لها أحد غيرك . قال : قد فعلتُ . وغدا يزيد إلى سليمان بن عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين ! أتاني عثمان بن حَيَّان وأصحابه ، قال : أمسكَ في المال ؟ قال : نعم . قال سليمان : والله لآخذنّه

منهم ! قال يزيد : إني قد حَملته ! قال : فأدِّه . قال يزيد : والله ما حملته إلاّ لأُؤديه ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ! إنّ هذه الحَمالة وإن عظم خَطبها ، فَحَمْدُها والله أعظم منها ، ويَدِي مبسوطة بيدك ، فابسُطها لسُؤّالها . ثم غدا يزيد بالمال إلى الخُزّان فدفعه إليهم ، فدخلوا على سليمان فأخبروه فقبض المال ، فقال : وَفَتْ يمينُ سليمان ، احملوا إلى أبي خالد ماله » . فقال عَدِي بن الرِّقاع العامليّ :

ولله عَيْنَا مَنْ رأى كحَمَالة
تحمَّلها كَبْشُ العراق يزيدُ (٦٠)

وخرج العُدَيْل بن الفَرْخ الشاعر يريد الحجّاج ، فلما صار ببابه حجبه الحاجب ، فوثَبَ عليه العُدَيْلُ وقال : « إنه لن يدخل على الأمير بعد رجالات قريش أكبر مني ولا أولى بهذا الباب » ، فنازعه الحاجبُ الكلامَ فأحفظه . وانصرف العُدَيل عن باب الحجّاج إلى يزيد ، فلما دخل إليه أنشأ يقول :

لئن أرْتَجَ الحجّاجُ بالبخل بابَه
فبابُ الفتى الأَزْدِيّ بالعُرْف يُفْتَحُ
فتىً لايبالي الدهرَ ما قلّ مالُه
إذا جعلتْ أيدي المكارم تسنَحُ
يداهُ يدٌ بالعُرف تُنْهبُ ماحوتْ
وأخرى على الأعداء تسطو وتجرحُ
إذا ما أتاه المرملون (٦١) تيقنوا
بأنّ الغِنَى فيهم وشيكاً سَيبرَحُ

(٦٠) العقد الفريد (١/٣٠٣ ــ ٣٠٥) .
(٦١) المرملون : مَن نفد زادهم .

هلمّوا إلى سَيْب الأمير وعُرفِه
فانّ عطاياه على النّاس تَنْفَحُ
وليس لعِلْجٍ من ثمودَ بكفِّه
من الجودِ والمعروف حزم مطوَّحُ

فقال يزيد : « عرَّضْتَ بنا ، وخاطرتَ بدمك ، وبالله لايصلُ إليك وأنت في حيِّزي » ، وأمر له بخمسين ألف درهم ، وحمله على أفراس ، وقال له : « الْحَق بعلياء نَجْدٍ ، واحذر أن تعلقك حبائل الحجّاج أو تحتجنَك محاجِنُه (٦٢) ، ابعث إليّ في كلّ عام ، فلك عليّ مثل هذا » ، فارتحل . وبلغ الحجّاج خبرُه ، فأحفظه ذلك على يزيد ، وطلب العُدَيل ففاته (٦٣) .

وليس من السّهل أن يحمي أحد من يطلبه الحجّاج ، وكان يومئذٍ أقوى شخصية بعد الخليفة ، وكان يُجيرُ ولا يجار عليه إلاّ من أمير المؤمنين ، ولكن مروءة يزيد جعلته يُقدم على حماية هذا الشاعر ويدفَع له المال الجزيل ، ويهرِّبه إلى مكان قصيّ ، وهو يعلم حقّ العلم انه يغضب الحجّاج ويتحدّاه بما أسدى للشاعر من خير ، وأنّ الحجّاج لايسكت عمّن يغضبه ولا عمّن يتحدّاه .

ودخل كُرَيز بن زُفَر بن الحارث على يزيد فقال : « أصلح الله الأمير ! أنت أعظم من أن يُستعان بك ويُستعان عليك ، ولستَ تفعل من الخير شيئاً إلاّ وهو يَصْغُر عنك وأنت أكبر منه ، وليس العجب أن تفعل ، ولكنّ العجب ألاّ تفعل » ، قال : « سَلْ حاجتك » قال : « قد حملتُ عن عشيرتي

(٦٢) محاجنه : عصيته المعوجّة الي يحتجن الناس بها كالخطاطيف .
(٦٣) الأغاني (٢٢/٣٣٠ ـ ٣٣١) .

عَشْر دِيات » ، قال : « قد أمرتُ لك بها وشَفعتُها بمثلها » (٦٤) .

وقال يزيد بن المهلّب لسليمان بن عبد الملك في حَمَالة كلّمه فيها : « يا أمير المؤمنين ! والله لحَمدُها خيرٌ منها ، ولَذِكرُها أحسن من جَمْعِها ، ويَدِي مبسوطة بيدك فابسُطْها لسؤالها » (٦٥) .

ولعلّ أبلغ ما يمكن أن يوصف به جُودُ يزيد ، ما كان يقوله هشام ابن حسان إذا ذكره : « والله إن كانت السُّفن لتَجْري في جوده » (٦٤) .

٣ . السجايا والاضداد

كان يزيد جواداً مُمَدّحاً كثير الغزو والفتوح (٦٧) ، وكان يحبّ هذا الفخر ، فأقبل عليه الشعراء بخاصة ، يمدحونه ويثنون عليه .

ومن الشعراء الذين مدحوه الفرزدق ، فقد كان يهجو المهلّب بن أبي صُفْرَة الأَزدِيّ ، فلما ولى سليمانُ بن عبد الملك يزيدَ خُراسان والعراق ، مدحه الفرزدق فقال :

فلأَمْدحَنّ بنى المهلّب مِدْحةً
غرّاء قاهرة على الأشعار
مثل النّجوم امامها قمْراؤها (٦٨)
وخلائقاً كتدفّقِ الأنهار
ورِثوا المهلّب للعراق وقايةً
وَحَيا الرَّبيع وَمَعْقِل الفُرار

(٦٤) العقد الفريد (١/٢٥٥) وانظر عيون الاخبار (٣/١٢٤) .
(٦٥) عيون الاخبار ٣/١٣٠) .
(٦٦) العقد الفريد (١/٣٠٣) .
(٦٧) العبر (١/١٢٤) .
(٦٨) القمراء : ضوء القمر .

وإذا الرجال رأوا يزيـــد رأيتـــهم
خضعَ الرِّقاب نواكسَ الأبصار
مازال مُذ شَدَّ الازار بكفّـه
ودنا فأدرك خمسة الأشبار (٦٩)
أيزيدُ إنّـك للمهـلّب أدركـــت
كفّاك خير خلائق الأخيـــار (٧٠)

وقال الفرزدق أيضاً :

إن المهالبةَ الكِرامَ تحمّلـــوا
دَفْعَ المكـــارهِ عن ذوى المكروه
زانوا قديمَهـم بحســـن حديثهم
وكريم أخلاقٍ بحسنِ وجوه (٧١)

وفي يزيد وآل المهلّب يقول الشاعر :

نزلتُ على آل المهلّب شاتيـــاً
غريباً عن الأوطان في زمن المحْل
فما زال بـي إحسانُهـم وافتقادهم
وبرّهم حتى حسبتهمُ أهلـي (٧٢)

والشعر في مدح يزيد كثير ، نكتفي بهذا القليل لاعطاء ، فكرة واضحة لاستقطاب يزيد للشعراء حوله ، وهباته هي التي استقطبتهم بالدرجة الأولى على كل حال .

ومضى يزيد إلى جوار الله ، ومضى ماله في وجوه إنفاقه ، وبقى الذكر الحميد

---

(٦٩) خبر (مازال) مفهوم من المقام ، اي مازال كريماً مهيباً ونحو ذلك .
(٧٠) الأغانى (٢٢/٣٤٥ ـ ٣٤٦) .
(٧١) النجوم الزاهرة (١/٢٦٩) .
(٧٢) المختصر في تاريخ البشر لأبي الفدا (١/٢٠١ ـ ٢٠٢) .

ومن مزايا يزيد ، شجاعته الخارقة ، فما هرب في حرب ، وقال في كلّ معركة خاضها قتال الأبطال الأفذاذ .

وفي المعركة التي قتل فيها ، استقتل بعد فرار معظم جيشه ، وكان لايحدّث نفسه بالفرار ، فجاءه مَنْ أخبره أن أخاه حَبيباً قد قُتل ، فقال : « لاخير في العيش بعد حبيب لقد كنتُ والله أبغض الحياة بعد الهزيمة ، فوالله ما ازددتُ لها الا بغضاً . . . امضوا قُدُما » . وأخذ يكرّ ، كلّما مرّ بخيل كشفها ، أو جماعة من أهل الشام عدلوا عنه .

وهمس باذنه أحد المقربين اليه ، أن الناس قد ذهبوا ، فانْصَرف الى (واسط) فانها حصن تنزلها ، ويأتيك المدد من البصرة ، ويأتيك أهل عُمان والبحرين في السفن ، وتضرب خندقاً ، فقال « قبّح الله رأيك ! إلـيّ تقول ؟ ذا الموت أيسر عليّ من ذلك » (٧٣) .

وبعد أن انجلت تلك المعركة عن مقتل يزيد أتى برأسه الى مسلمة بن عبد الملك ، فلم يعرف الرأس ، فقال حَيّان النَّبَطِيّ : « مهما ظننتم فلا تظنّوا أن الرجل هرب ، ولقد قُتل » ، فقال مسلمة : « وما علامـــة ذلك ؟ » فقال : إني سمعته أيام ابن الأشعث يقول : قبّحَ الله ابن الأشعث ! هَبُوه غُلب على أمره . أكان يُغلب على الموت ؟ ! ألا مات كريما » (٧٤) .

وفي معارك استعادة فتح جُرْجان ، اختار يزيد ثلاثمائة من أصحابه الشجعان للنهوض بمهمة اقتحامية محفوفة بالأخطار ، وجعل عليهم ابنه خالداً وقال له : « إن غُلِبْتَ على الحياة ، فلا تُغْلَبَنّ على الموت ، وإياك ان أراك عندي منهزما » (٧٥) .

لقد كان يزيد مقاتلاً رهيبا ، وصدق ثابت بن قُطْنَة الذي قال في يزيد :

---

(٧٣) وفيات الأعيان (٣٤٨/٥) .
(٧٤) وفيات الأعيان (٣٤٩/٥) .
(٧٥) الطبري (٥٤٣/٦) .

كلُّ القبائلِ بايعُوكَ على الذي
تَدْعُو اليه وتابَعُوكَ وساروا
حتى إذا اخْتَلَفَ القنَا (٧٦) وجعلنهمْ
نصبَ الأسِنَّةِ أسلموكَ وطاووا
إنْ يَقْتُلوك فانَّ قتْلَكَ لم يكُنْ
عاراً عليكَ ، وبعضُ قَتل عار(٧٧)

واذا كان بالامكان ان يقال شيٌ في شعر الثناء . لأنّ حافزه غالباً (الرجاء) فلا يمكن أن يقال شيٌ مثله في شعر الرثاء ، لان حافزة دوماً (الوفاء) ، وليس منْ يأخذ كمن يعطي !

وقد كان يزيد يتمثل كثيراً في الحرب بقول حُصين بن الحُمَام :

تأخرتْ أسْتَبْقى الحَياة فلم أجِدْ
لنفسي حياةً مثل أن أتَقَدْما (٧٨)

وقد نُسب هذا البيت من الشعر في عيون الأخبار ليزيد (٧٩) ، والصواب أنّ البيت ليس من مَقُوله، ولعل صاحب كتاب عيون الأخبار نسبه الى يزيد لكثرة ما كان يتمثَل به يزيد ، فنسبه الرواة اليه .

والمهم أنّ يزيد كان يردد هذا البيت كثيراً حتى أصبح له شعاراً ، وكان يلتزم التزاماً جازماً بهذا الشِّعار ، ورفع الشِّعار شيٌ ، والالتزام به شيٌ آخر ، وشتانَ بين رَفْعِ الشِّعارات وبين الالتزام بها !

(٧٦) في الاغاني : حتى اذا حمس الوغى .

(٧٧) الشعر والشعراء (٥٢٧) ، وقد دخل هذا البيت في ابيات لحبيب بن خدرة الخارجي يرثي بها زيد بن على بن الحسين بن على بن ابى طالب رضي الله عنه ، انظر شعر الخوارج (٨٠) ، ومن المستطرف ان يرثي احد الخوارج رجلاً من آل على رضي الله عنه .

(٧٨) العقد الفريد (١٠٤/١) .

(٧٩) عيون الأخبار (١٢٥/١) .

ج . ومما يحكى عن يزيد ، أنّ حيّة وقعت عليه في يوم من الأيام ، فلم يدفعها عن نفسه، فقال له أبوه : «ضيّعت العقل من حيث حفظت الشجاعة »(٨٠)

ولم أجد وصفاً ينطبق على يزيد في حاضره ومستقبله . كهذه الكلمات القليلة التي وصفه بها أبوه ، فهو من أجل الشجاعة ضيّع العقل !

فقد كان لايصغى الى ناصح ، ولا يستشير أحدا ، واذا اقتنع بأمر طبقه دون ان يأخذ بنصيحة ناصحٍ أو برأيٍ مخالف لرأيه الذي اقتنع به .

نصحه كاتبه ألا يمضي كتابه الى سليمان بن عبد الملك : « . . . وقد صار عندي خمس ماأفاء الله على المسلمين بعد ان صار إلى كلّ ذى حق حقّه من الفيء والغنيمة ستة آلاف ألف » (٨١) ، فما اكترث بنصيحة الكاتب المخلص الحصيف . وامضى الكتاب وأبرده الى سليمان ، فجر عليه عناده الويل والثبور وسجن في سجن (حلَب) ثم هرب من سجنه واعلن العصيان ، فدفع حياته ثمناً لهذا العناد .

ونصحه أخوه حبيب وغيره . أن يغادر العراق وينزل بفارس ويأخذ بالشعاب والعقاب ويدنو من خُراسان فيطاول أهل الشام في تلك المناطق النائية ، فقال : « ليس هذا برأيي ! تريدون ان تجعلوني طائراً على رأس جبل ! » (٨٢) ، وأصر على قبول المعركة الحاسمة بينه وبين مَسْلَمَة بن عبد الملك في ارض العراق التي يتفوق فيها مَسْلَمَة على يزيد تفوقاً بعيداً .

وبعد هرب اصحابه في تلك المعركة . واصبحت نتيجتها مضمونة لمسْلَمَة واصبح موقفه يائساً إلى أبْعَد الحدود . أصرّ على أن يقاتل حتى الموت ، دون أن يلتفت الى نصيحة النّاصحين له بالانسحاب .

إنه من اجل الشّجاعة ضيّع العقل ! وعقدته هي ألا يتحدّث العرب بأنّ يزيد

(٨٠) وفيات الأعيان (٣٢٦/٥) .
(٨١) الطبري (٥٤٤/٦ ــ ٥٤٥) وانظر ابن الاثير (٣٥/٥ ــ ٣٦) .
(٨٢) ابن الأثير (٧٦/٥) .

هرب والفرق شاسع بين الهزيمة والانسحاب .

ولو اردنا أن نتذكر مواقفه التي تدل على إصراره وتمسكه برأيه ، وضرب نصائح الناصحين له عرض الحائط ، لطال القول وتشعّب ، فيكفي دليلاً ماذكرناه .

د . وكان يحبّ هذا الفخر . ويطرب للثناء والمديح ، ومن أجل هذا الفخر بالغ في كتابه الى سليمان) استعادته فتح جُرْجان وطبرستان ، فجعل منه فتحاً لم يسبقه ال مثله أحد من الأكاسرة والقياصرة ومن الخلفاء الراشدين ولم يكن الأمر كذلك كما اسلفنا ، بل سبقه غيره من قادة الفتح الاسلامي في فتح هذين الاقليمين الشاسعين .

وبلا شك كان يستحق الثناء والاطراء بأعماله فاتحاً وإدارياً وجواداً ، ولكنه كان يحب أن يحمل الناس على إطرائه والثناء عليه ، حتى كانت من اغلى أمانيه على نفسه أن يعرف مايقوله الناس عنه بعد ان يفارق الحياة (٨٣) .

وبلغ به حبه للثناء والاطراء ، أنه يُقَرّب الذين يثنون عليه ويطرونه ، ويُبْعِد الذين لايحبون التملق للحاكمين حتى ولو كانوا من الاهل والاقرباء .

فقد كان للمُغيرة بن المهلب ابن اسمه : بشر ذكره أبو تمام الطائي في كتابه (الحماسة) ، لم يكن يحب ان يتقرب إلى عمه بالثناء ، فجفاه يزيد ، فقال في يزيد :

جفاني يزيدٌ والمُغيرةَ قد جفَا
وأمسى يزيدٌ لي قد ازورّ جانبُه
وكلُّهم قد نال شبعاً لبطنه
وشبع الفتى لؤمٌ إذا جاع صاحبُه

(٨٣) وفيات الأعيان (٣٢٥/٥) .

فياعم مَهْلاً واتّخذني لنوبـــة
تنوبُ فانّ الدّهرَ جمٌّ نوائبُـــه
أنا السَّيْف الا أن للسيف نَبْـوَةً
ومثلى لاتنبو عليكَ مضاربُـــــه
على أي باب ابتغى الاذنَ بعدمـــا
حجبْتُ عن الباب الذي اناحاجبه (٨٤)

هـ . وكان يحبّ الامارة ويطلبها ويسعى اليها ، ولما ولي الحجاج خراسان المُفضّل بن المهلب وعزل يزيدَ ، وجعل المفضّل يستحثّ يزيد ، فقال للمفضل « إنّ الحجاج لايقرُّكَ بعدي ، وانما دعاه الى ماصنع مخافة أن أمتنع عليه » ، فقال المفضل : « بل حَسَدتَني ! » (٨٥) .

وكان سليمان بن عبد الملك ، قد ولى يزيد العراق ولم يوله خَراسان ، فقال سليمان بن عبد الملك لعبد الملك بن المهلب وهو بالشام ويزيد بالعراق : « فكيف أنتَ ياعبد الملك إنْ ولّيتُك خُراسان ؟ » « قال : « يجد ني أمير المؤمنين حيث يحبّ » ، ثم أعرض سليمان عن ذلك .

وكتب عبد الملك بن المهلب الى أصحابه وخاصته في خراسان : « إن امير المؤمنين عَرَضَ علي ولاية خُراسان » ، فبلغ الخبر يزيد .

وكان يزيد يطمع في خُراسان ، فأوفد مبعوثاً خاصاً يعتمد عليه الى سليمان ابن عبدالملك ، وقال لمبعوثه : « قدبلغني أن امير المؤمنين ذَكَرَها ـ يريد خراسان ـ لعبد الملك بن المهلب ، فهل من حيلة ؟ » . فقال : « سرّحني الى امير المؤمنين فاني أرجو أن آتيكَ بعهدكَ عليها » . قال « فاكتم ما اخبرتك به » (٨٦) . ولكن الخبر شاع . فسجّله التاريخ على يزيد وراه الرواة عنه ، وما ينبغي أن

(٨٤) وفيات الأعيان (٣٣٠/٥) .
(٨٥) الطبري (٣٩٥/٦) .
(٨٦) الطبري (٥٢٥/٦) .

يبلغ حب السلطة والتكالب عليها حدّ التنافس بين الاخوين على منصب واحد من المناصب ، فقد كان السلف الصالح يعتبرون الامارة تكليفاً لا تشريفاً . ولم يبق تنافس أبناء المهلّب على السلطة سرّاً ، بل تناقلة الناس . فقال الشاعر في عزل يزيد عن خراسان وتولية اخيه المفضل ، ثم عزل المفضل بقُتَيْبة بن مُسْلم ، مخاطباً المفضل بن المهلب واخاه عبد الملك بن المهلب . وامهما

يا ابْنَـي بَهْلة إنّما أخـزاكمـــا
ربيّ غداة غدا الهُمام الأزهر (٨٧)
أحفَرْتُمُ لأخيكـمُ فَوَقَعْتُـمُ
في قَعْرِ مُظلمة أخُوها المُعْوَرُ
جُودوا بتوبةِ مُخْلِصيْنَ فانّما
يَأبَى وَيأنَفُ أنْ يتُوب الأخسرُ (٨٨)

ولعل سبب حرصه على الامارة هي رغبته في جمع المال وتوزيعه على الذين يقصدونه من الناس تطميناً لخصلة الكرم والأريحية والمروءة والشهامة والنجدة التي كانت من ابرز مزاياه ، ولكنه اسرف في العطاء ، حتى حبسه الحجاج واغرمه ستة آلاف ألف (٨٩) ، وأغرمه عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ستة آلاف ألف أيضاً ، يوم كانت الشاة بنصف درهم .

ولاشك ان عطاءه بدون حساب ، هو كرم خارق ، ولكنه سرف خارق أيضاً لا يُحمد عليه .

و . ومما يؤخذ عليه ، تعصّبه لقبيلته بخاصة وللقحطانيين على العدنانيين بعامة ، وبلغ تعصّبه درجة جعلته يطلق سراح الأسرى من قبيلته ليعيشوا أحراراً ،

(٨٧) الهمام الأزهر : يريد به يزيد بن المهلب .
(٨٨) الطبري (٣٩٥/٦) .
(٨٩) الطبري (٤٤٨/٦) .
(٩٠) الطبري (٥٤٤/٦ ــ ٥٤٥) وابن الأثير (٣٥/٥ ــ ٣٦) .

وبعث ببقية الأسرى الى الحجاج لينزل بهم عقوبة الموت ويضرب اعناقهم بالسيف (٩١) .

وما هكذا يكون العدل ، ولا هكذا يكون الانصاف ! !

ونظر مطرّف بن عبد الله بن الشّخّير (٩٢) ، الى يزيد وهو يمشي وعليه حُلّة يسحبها ، فقال له : « ما هذه المِشْيَة التي يبغضها الله ورسوله ؟ ! » ، فقال يزيد : « أما تعرفني ؟ ! » ، قال : بلى ! أوّلك نُطْفَةٌ مَذِرَة ، وآخرك جِيفَةٌ قَذِرة ، وانت بين ذلك تحمل العَذِرَة » (٩٣) .

فقد كان فيه كِبر وخيلاء ، تعجبه نفسه كثيراً ، ذا همّة عالية ، لايعرف الكلل والملل ، ويكره العَجَز والتواكل ، ومن أقواله : « مايسرّني أن أكفى أمور دنياي كلّها ، ولي الدنيا بحذا فيرها » ، فقيل له : ولمَ ذلك ؟ ! فقال « إني اكره عادة العَجَز » (٩٤) .

ولعل من اسباب كِبره ، وخيلائه ، شعوره بالتفوق على مَن حوله من الناس كفاية واقتداراً . وثراء وجاها . ومنصباً ومكانة ، ولكن التواضع من الخصال الحميدة التي يعجب بها الناس ويعجبون بصاحبها .

ولم يكن يزيد يتنازل عن خيلائه واعجابه بنفسه حتى في حضرة امير المؤمنين ، فقد سأله سليمان بن عبد الملك : « فيمن العِزّ بالبَصْرَة ؟ » ، قال «فينا وفي حلفائنا من ربيعة » ، قال سليمان : «الذي تحالفتما عليه أعز منكما» (٩٥)

وصدق عمر بن عبد العزيز رضى الله الذي يقول عن يزيد وأهل بيته :

---

(٩١) انظر التفاصيل في الطبري (١٦/٣٧٥ ــ ٣٨٣) .
(٩٢) مطرّف بن عبدالله بن الشخير الفقيه الفاضل ، انظر جمهرة انساب العرب (٢٨٨) .
(٩٣) وفيات الأعيان (٦/٣٢٧) ، والمذرة : الفاسدة . والعذرة : الغائط .
(٩٤) وفيات الأعيان (٥/٣٣٧) .
(٩٥) العقد الفريد (٤/٣٥) و (٤ /٤٨) وانظر عيون الأخبار (١/٢٩١) .

« هولاء جبابرة ، ولا احب مثلهم (٩٦) ، فكان يزيد وهو رئيس اهل بيته : جبار الجبابرة .

ز . أما علمه ، فقد روى عن انس بن مالك وعمر بن عبد العزيز وابيه المهلب ، وروى عنه ابنه عبد الرحمن وأخوه ابو عُيَيْنَة بن المهلب وابو اسحق السَّبِيْعي وغيرهم (٩٨) ، وكان فصيحاً بليغاً قليل اللحن ، ومن أقواله في البيان : « أكْرَهُ أن يكون عقلُ الرجل على طرف لسانه » ، يريد انلايكون عقله إلا في الكلام (٩٩) الذي يتّسم بالفصاحة والبيان .

تلك ماليزيد وما عليه من السجايا والاضداد ، وكفى المرء نبلاً ان تعدّ معايبه .

هُوَ بَيْتُه الشخصيّة :

ذكرنا أباه وأمه في نسبه وأيامه الأولى ، وقد ولد المهلب نحو ثلاثمائة ولد ، أعقب منهم تسعة عشر ، واعقابهم بالبصرة وبغيرها ، وهم : المُغيرة ، ويزيد ، ومَرْوان ، ومُعَاوية ، وزياد ، وعبد الملك ، وحبيب ، ومحمد ، وقَبِيْصَة ، والمُفَضَّل ، والمدْرِك ، وأبوعُيَيْنَة ،وعبدالعزيز ،وعبدالله ، وسعيد ، وشَبِيْب ، وعمرو ، وجعفر ، والحجاج .

ومن ولد يزيد : معاوية . والمهلب ولي فِلَسْطِيْن ، وعمرو وحبيب ومحمّد ، ومَخْلَد . وخالد ، وعبد الرحمن ثار بفارس (١٠٠) .

ونعرف من زوجاته : عاتِكة بنت الفرات بن معاوية العامريّة من بني البكّاء (١٠١) ، ومن جواريه التي أصبحت أمّ ولد : بَهْلَة الهنديّة ، وهي أمّ

(٩٦) الطبري (٥٥٧/٦) .
(٩٧) اسمه : عمرو بن عبدالله ، من السبيع ، انظر طبقات خليفة بن خياط (١٦٢) .
(٩٨) وفيات الأعيان (٣٢٣/٥) .
(٩٩) عيون الأخبار (١٦٨/٢) .
(١٠٠) أنساب العرب (٣٦٨) .
(١٠١) الطبري (٥٦٤/٦) والمحبر (٤٤٣) .

المُفَضَّل وعبد الملك (١٠٢) .

وقد ذكرنا أنّه ولد سنة ثلاث وخمسين الهجرية (٦٧٢ م) ، وقُتل سنة اثنتين ومئة الهجريّة (١٠٣) (٧٢٠ م) ، وأُرسل رأسه إلى يزيد بن عبد الملك (١٠٤) ،

لقد عاش تسعاً وأربعين سنة قمرية ، وثمانٍ وأربعين سنة شمسية ، ولكنه ملأ صفحات من التاريخ أكثر من سِنِيِّ حياته عَدَداً ، فكانت حياته عامرة بالنشاط الزاخر إدارياً وقائداً وسجيناً ، فدخل التاريخ من أوسع أبوابه بجهوده وجهاده محسناً مرّات وغير محسن مرّة ، فلم يبق كغيره من الولاة والقادة مُجَرَّد عدد في السجل لا أثر له ولا تأثير في الناس حيّاً ، لأنه كان موظفاً حسب يتّبع ولا يَبْتَدع ، ومصيره موظفاً أهم بالنسبة إليه من مصائر الناس . ثم ما كادت وظيفته تزول عنه إلاّ أصبحت حياته تافهة كأنه مَيْت قبل أن يموت . فَاذا مات لم يترك أثراً ولا تأثيرا ! ! لقد كان يزيد . . . . رجلا . . .

في رثائه :

ورثاه الشعراء بعد موته ، بل أقرّ الخليفة الذي قتله بفضله ، فقال ثابت قُطْنَةَ (١٠٥)

ألا يا هِنْدُ طالَ عليَّ ليلي
وعاد قصيرُه ليلاً تماما

---

(١٠٢) الطبري (٣٩٥/٦) .

(١٠٣) تاريخ خليفة بن خياط (٣٣٢/١) والنجوم الزاهرة (٢٤٨/١) والعبر (١٢٤/١) .

(١٠٤) البدء والتاريخ (٤٨/٦) .

(١٠٥) هو ثابت بن كعب بن جابر العَتَكِيّ الازدي ، اصيبت عينه بخراسان ، فجعل عليها قطنة ، فعرف بذلك ، انظر وفيات الأعيان (٣٥١/٥) .

كأنّي حين حلّقتِ الثريّـــا
سُقيتُ لُعابَ أسْوَدَ أو سَمَاما
أمرَّ عليّ حُلْوَ العَيْش يـــومٌ
من الأيّـام شيّبَني غُـلاما
مصابُ بني أبيكِ وغِبْتُ عنهم
فلم أشهدهمُ ومضَوا كِراما
فـــلا واللهِ لا أنْسى يزيـــداً
ولا القَتْلى التي قُتِلَت حَراما
فَعَلّى أن أبُوءُ بأخيـك يومـاً
يزيـداً أو أبوءَ بـه هشَـامَـا
وعَـلّي أنْ أقودَ الخيلَ شُعْثاً
شوازِبَ(١٠٦)ضُمَّراً تَقِصُ(١٠٧)الأكاما
فأُصْبِحَهُنَّ حِمْيَر من قريبٍ
وعكّاً أو أرُعْ بهما جُذامـا
ونَسْقِي مَذْحَجاً والحيَّ كَلْباً
من الذَّيفان (١٠٨) أنفاساً قَوَامـا
عشائرنا التي تبغي علينـــا
تَجرّبُنا زَكا عـامـاً فعـامـا

(١٠٦) شَزَبَ الحيوان ـ شَزْوباً : ضَمُرَ ، فهو شازِب . (ج) شُزَّبٌ ، وهي شازِبَة (ج) . شَوازِب .
(١٠٧) تقص فرسه : تثب به وثباً قصير الخطى .
(١٠٨) الذيفان : السريع ، وصارم قاطع .

ولـولاهـمْ ومـا جَـلَـبُـوا عليـنا
لأَصبـح وَسْـطُـنـا مَـلِـكاً هُـمَـامـا

وقال أيضاً يرثي يزيد :

أَبِيَ طُـولُ هذا اللَّيْـل أن يتَـصَرَّمـا
وهاجَ لكَ الهَـمُّ الفـؤادَ المُـتَيَّـمـا
أَرِقْـتُ وَلمْ تَأْرَق معي أُمُّ خالد
وقد أَرِقَتْ عيناي حَوْلاً مُجرَّما (١٠٩)
على هَـالِـكٍ هَـدَّ العشيرةَ فَقْدُهُ
دعته المنايا فاستجاب وَسَلَّمَـا
على مَلِكٍ ياصَاح بالعَقْرِ (١١٠) جُبِّنَتْ
كتائبُـه واسْـتَوْرَدَ الموتَ مُـعْلِمـا
أُصِيبَ ولم أَشْـهَـدْ ولـو كـنتُ شاهـداً
تسلَّـيْـتُ إن لم يَجْمَع الحيُّ مأتما
وفي غِـيَـرِ الأَيَّـام ياهِـنْـدُ فاعلمي
لطالِـبِ وِتْرٍ نظرة أَن تلوّمـا
فَعَلَّيَ إنْ مالتْ بيَ الريح مَيْـلَـةً
على ابن أبي ذِبَّـانَ (١١١) أَنْ يتندّما
أَمَسْلَمُ (١١٢) إن يَقْدِرْ عليك رِماحُنا
نُذِقْكَ بهـا قَيءَ الأَساود مسلمـا

(١٠٩) تجرّم : تَم وانقضى ، يقال : تجرّمت السنة ، وتجرّم الليل .
(١١٠) العقر : اسم مكان مر ذكره ، وهو مكان المعركة التي دارت بين يزيد بن المهلب ومسلمة بن عبدالملك .
(١١١) ابو ذبان ، او ابو الذبان : لقب عبدالملك بـن مروان ، وابن ابى ذبان هو : يزيد بـن عبدالملك .
(١١٢) مَسْلَم : يريد به مسلمة بن عبدالملك . قائد جيش يزيد بن عبدالملك الذي قاتل به جيش يزيد بن المهلّب وانتصر عليه .

وإن تَلْقَ للعبّاس (١١٣) في الدّهر عثرة
نكافِئْه باليوم الذي كان قَدّما
قصاصاً ولا نَعدو الذي كان قد أتى
إلينا وإن كان ابن مروانَ أظلَمَا
ستعلمُ إنْ زَلَّتْ بك النَعْل زلّةً
وأظهر أقوامٌ حياءً مجَمْجِما (١١٤)
مَن الظّالم الجَاني على أهلِ بيته
إذااحْصِرَت(١١٥)أسباب أمرٍ وأبْهَمَا
وإنّا لعَطّافون بالحلم بعدما
نَرى الجهّلَ من فرط اللّئيم تكرُّما
وإنّا لحلاّلونَ بالثَّغْر لانرى
به ساكناً إلاّ الخميْس(١١٦) العَرَمْرَما
نرى أنّ للجيْرانِ حَاجاً وحُرْمةً
إذا النّاس لم يَرْعَوْا لدى الجار محرْمَا
وإنا لنقرى الضيفّ من قَمع الذّرى
إذا كانَ رفدُ الرافدين تَجَشَّما

---

(١١٣) العباس : العباس بن الوليد بن عبدالملك ، كان مَسلمة بن عبدالملك في قيادة الجيش الذي قاتل يزيد بن المهلّب .

(١١٤) جمجم فلان : لم يبيّن كلامَه . وجمجم الشيءَ في صدره : اخفاه ولم يُبْدِه .

(١١٥) في ابن الأثير (٨٨/٥) : احضرت .

(١١٦) الخميس : الجيش الجرار .

وراحت بصُرَّادٍ (١١٧) مُلِثّ (١١٨) جليدُه
على الطَلْح (١١٩) أرماكا (١٢٠) من الشُّهب صُيَّما
أبونا أبو الأنصار عمرو بن عامرٍ (١٢١)
وهم وَلدُوا عَوْفاً وكَعْباً وأسلما
وقد كان في غَسَّانَ مَجْدٌ يُعَدُّهُ
وعادِيَّةٌ كانت من المجد مُعظَما (١٢٢)

ولما حُمِل رأس يزيد بن المهلّب إلى يزيد بن عبد الملك في الشام ، نال منه بعض جلسائه ، فقال له : إنّ يزيد طاب جسيماً ، وركب عظيماً ، ومات كريما (١٢٣) ، وحسبى بشهادة أعدى أعداء يزيد ، فقال النّاس : « ضحىّ بنو أُميّة بالكرم يوم (العَقْر) » (١٢٤) ، يريدون بذلك قتل يزيد ، فقد كان من النجباء الكرماء العظماء الفُرْسان (١٢٥) .

ولم يمض يزيد وحده إلى جوار ربّه ، بل مضى معه كثير من آل بيته من المهالبة في مجزرة مروّعة حصدتهم حصدا ، وحتى فتية المهالبة الأحداث التسعة الذين بعث بهم مَسْلَمة بن عبد الملك إلى يزيد بن عبد الملك أمر يزيد بقتلهم ، فقتلوا وبقى منهم غلام صغير ، فقال : « اقتلوني فما أنا بصغير » ، فقال يزيد : « انظروا أنْبَتَ ! » ، فقال : « أنا أعلم بنفسي ، قد احتلمتُ

(١١٧) الصراد : الريح الباردة تخالطها رطوبة .
(١١٨) لث بالمكان : أقام . ولث المطر : دامَ أياماً لايقلع .
(١١٩) الطلح : شجر عظام من شجر العضاه ترعاه الأبل ، والطلح جمع طَلْحَة
(١٢٠) أرماك : جمع الرمكة : الضعيف . والرامك : المقيم بالمكان لايبرح ، جمعها ارماك .
(١٢١) عمرو بن عامر بن لحى ابو الأوس والخزرج من الانصار .
(١٢٢) الطبري (٦٠٣/٦ ـ ٦٠٤) وانظر ابن الاثير (٨٧/٥ ـ ٨٨) .
(١٢٣) وفيات الاعيان (٣٥٠/٥) .
(١٢٤) وفيات الاعيان (٣٥١/٥) .
(١٢٥) وفيات الاعيان (٣٥٢/٥) .

ووطئتُ النساء » ، فأمر به يزيد فقتل (١٢٦).

لقد كان يزيد رجلاً قد لا يتكرر أبدا .

القائد

١ ـ صفاته القيادية :

أ . قبل أن يُقْتَل يزيد ، وبعد أن هرب أكثر أصحابه من حوله ، وأخذ منْ يكره القتال ينكص ، وتسلّل الباقون معه أفراداً وجماعات ، جاءه أحد المقربين إليه يقول له : « أما ترى ماحولك من جبال الحديد ! » فقال له : « أما أنا فما أباليها ، جبال حديد كانت أم جبال نار ! » ثم مضى يقاتل وهو ينشد قول الأعشى :

أيا الموتِ خَشَّتني عُبَادٌ وإنّما
رأيتُ مَنَايَا النّاسِ يَشْقى ذَليلُها
فما مِيتَةٌ إن مُتُّهَا غيرَ عاجزٍ
بِعَارٍ إذا ما غالَتِ النفسَ غُولُهَا

وأقبل يزيد نحو مَسْلَمَة بن عبد الملك مستقتلاً لا يريد غيره ، حتى إذا دَنَا منه قرّب مَسْلَمَة فرسَه ليركب ، فعطف عليه خيول أهل الشّام وعلى أصحابه وحملوا بأجمعهم .

واقتتلوا ساعة ، وسطع الغُبار ، وانفرج الفريقان عن يزيد قتيلا (١٢٧) ، وهكذا انتصر التفوّق العَدديّ والعُدَديّ على الشّجاعة والاقدام ، فمات يزيد كريماً مُقْبلاً غير مُدْبر ، مُسْتَقتلاً غير متخاذل ، فصدق ثابت قُطنة في وصف مقتله :

---

(١٢٦) الطبري (٦٠٣/٦) وابن الاثير (٨٧/٥) .
(١٢٧) الطبري (٥٩٦/٦ ـ ٥٩٧) .

إنْ يَقْتُلوكَ فانّ قتلك لم يكُـنْ
عاراً عليك ، وربَّ قَتْلٍ عارُ (١٢٨)

لقد كان يزيد يستنكر الهرب من القتال ، ويرفض أيّ حجّة يعرضها الهارب ، وكان شعاره في كلّ حياته : النَصر أو الموت .

وطالما اندفع في المعارك التي خاضها إلى الأمام ، فأصبح في الصفوف الأمامية ملتحماً بالذين يقاتلهم ، فلا يكون أحدٌ من رجاله أقربَ إلى العدو منه ، فهو قائد يقود رجاله من (الأمام) ، يقول لأصحابه : اتبعوني ، ولا يبقى في (الخلف) مُسْتَكِناً في موضع أمين ، يقول لأصحابه : تقدّموا ، وهو قابع في موضعه الأمين لايتقدّم !

والذين يُقاتِلون في الصفوف الأمامية من القادة يضربون لرجالهم أروع الامثال ، إذ يكونون أسوة حسنة لرجالهم وقدوة صالحة ومثالاً يُحتذى به ، فيبعثون في نفوس رجالهم النّخوة والاقدام والتضحية والفداء .

وقلّما يُهزم الجيش يقاتل قائده في الصفوف الأمامية ويقوده من الامام .

ومن المعروف أن القادة العسكريين قسمان : قسم يقود رجاله من الامام من امثال خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة الشيباني ويزيد بن المهلب وكثير من قادة الفتح الآخرين ، وقسم يقوده رجاله من الخلف ، ومن النادر أن يثق الجيش بقائد يقوده من الخلف ، فالمقاتل ترتفع معنوياته اذا رأى بعينيه قائده وبخاصة في الاوقات الصعبة في حالة التماس بالعدو .

ولكن القائد الذي يكون في الصفوف الامامية في اثناء الاشتباك بالعدو لابد ان يكون متميزاً بالشجاعة الفائقة ، وهذا ماكان يتميز به يزيد ، وقد تحدثنا عن شجاعته عند الحديث على سماته إنساناً ، إذ لاخلاف في شجاعة

(١٢٨) وفيات الاعيان (٣٥١/٥) .

يزيد التي كانت من طراز فريد وكانت مضرب الامثال .

ب . لقد كان يزيد من هواة الحرب لامن اجل الحرب ، ولكن لتنفيذ خطط مرسومة للدولة في الفتح او استعادة الفتح وفي توطيد الأمن الداخلي واعادة الاستقرار والنظام وقمع الفتن ، والمعركة الواحدة التي خاضها لحسابه الخاص هي معركة (العقر) التي خسر فيها حياته ،ولم يخض تلك الحرب من أجل الحرب وحباً لاراقة الدماء ، ولكنه خاضها مُكْرهاً لا بطلاً ، فقد بقي في سجن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه دون أن يهرب ، وكان بمقدوره أن يفعل . فلما اصبحت حياة عمر مهددة بالموت هرب يزيد خوفاً من انتقام يزيد بن عبد الملك الذي تولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز لعداوة قديمة بين اليزيدين : يزيد بن عبد الملك ، ويزيد بن المهلب فهربه في الواقع كان دفاعاً عن النفس لاحباً في اشعال نيران الحرب .

والدليل القاطع على أنّه من هواة الحرب ، هو قضاؤه معظم أوقات ولايته غازياً لاجابيا ، فكان يؤثر مصاولة الأبطال وتحمل الاخطار والمشاق على الراحة في القصور بعيداً عن الأخطار والتعب والمشقة .

كما كانت حياته في أيام ابيه كلها في ميدان القتال ، محارباً الخوارج تارة ، وفاتحاً تارة اخرى ، ولم يبق مستقراً في مكان مريح أمين .

كما ان تميزه بالشجاعة الخارقة ، بالاضافة الى هوايته المفضلة للحرب ، دليل على انه من اصحاب الطبع الموهوب في القيادة

اما مزية التجربة العلمية التي يجب ان يتميز بها القائد الحق ، بالاضافة إلى الطبع الموهوب والعلم المكتسب ، فان أعمال يزيد العسكرية في القتال فاتحاً أو مستعيداً للفتح ، وفي القتال للقضاء على الفتن الداخلية غير دليل على تمتّعه بهذه الميزة الحيوية .

فقد كان أبوه المهلب خير استاذ له في التطبيق العملي لعلومه العسكرية

المكتسبة والتجربة العملية في القتـــال والاقتتـــال ، فما كـــان في العـــرب أضرب بسيفه ولا أحسن تعبية للحرب ولااغشى للناس من المهلب في ايامه ، فتعلم يزيد من ابيه ممارسة الحرب وادارتها مما أثرى علمه المكتسب وتجربته العملية ، فتولى القيادة بامرة أبيه المهلب واستعاد فتح قسم من البلاد التي انتقضت ، وما كان المهلب ليولي يزيد قيادة الجيوش لانه ابنه حسب ، فلا أحد يولي ولده قيادة عسكرية دون كفاية عالية ، لأنه بدونها يعرضه للمهالك وأفدح الاخطار .

وقد كان للمهلب كثير من الابناء . فما ولاهم جميعاً قيادات عسكرية ، بل ولى قسماً منهم فقط وعلى رأسهم ابنه يزيد ، مما يدل على اقتناع المهلب بأن يزيد استكمل علمه المكتسب وتجربته العملية فأصبح مصدراً من مصادر قوة أبيه اولاً قبل غيره من الناس ومصدر قوة للدولة التي يعمل المهلب وبنوه في خدمتها والدفاع عن مصالحها بأمانة وقوة وإخلاص .

نستنتج مما ذكرناه ، أنّ يزيد تيسرت له مزايا القائد المميز الثلاث : العلم المكتسب . والتجربة العملية . وقبل هاتين المزيتين الطبع الموهوب .

ج . فكيف استعمل يزيد مزاياه القيادية المتميزة الثلاث في التطبيق العملي قائداً . وبخاصة . في التطبيق العملي لمبادئ الحرب .

يبدو أنه اهتم كثيراً بمبدأين حيويين من مبادئ الحرب . الأمن ، والمباغتة وهما أهم مبادئ الحرب على الاطلاق .

وليس معنى هذا أنه لم يهتم بمبادئ الحرب الاخرى ، بالعكس ، فان اهتمامه بها كان عظيماً كما سنرى . ولكن أسبقية اهتمامه تركّزت على هذين المبدأين بالدرجة الأولى وبصورة خاصة ، دون أن ينسى المبادئ الباقية عامة أو يغض النظر عنها طرفة عين .

ففي مجال تطبيق ، مبدأ الأمن ، سيطر سيطرة كاملة على قاعدة الفتح واستعادة الفتح المتقدمة (مَرْو) ، وطهرها من أعداء الدولة . وخلّف عليها

ابنه مَخْلَد ، وهو ألمع أبنائه وأكثرهم كفاية ، ثم انطلق فاتحاً ومستعيداً للفتح (١٢٩) ، وبهذا جعل قاعدته المتقدمة امينة رصينة لايخشى عليها خطراً .

وكان يدأب على : الاستطلاع الشخصي قائداً لسرية قتالية ، كما فعل في حصار قُهِسْتان ، فقد خرج ينظر مكاناً يدخل منه الى المدينة المحاصرة في اربعمائة من وجوه الناس وفرسانهم ، فلم يشعروا حتى هجم عليهم الترك في أربعة آلاف ، فقاتلوهم ساعة حتى رجع عنهم العدو خائباً (١٣٠) .

وهذا الاسلوب من الاستطلاع ، وهو لغرض الحصول على المعلومات عن العدو بالقتال ، وهو أسلوب من اساليب تحقيق مبدأ : الأمن ، إضافة إلى فوائده الأخرى .

كما أنه وضع (العيون) على (نيزك) لرصد حركاته ، فلما استيقن خروجه من قلعته ، تحرك يزيد لفتح القلعة الحصينة التي استعصت على الفاتحين (١٣١) وهذا الأسلوب من الأساليب الاستطلاعية التي تحقق مبدأ : الامن ، ايضاً .

وكان يزيد لا يُغْفِل اتخاذ تدابير الحماية لجيشه ، فيرسل المقدمات والجنبات والمؤخرات ، لحماية جيشه من المباغتة ولحرمان عدوه من الحصول على المعلومات الضرورية عن هذا الجيش ، فلا عجب ألاّ تُباغت قوّات يزيد التي تعمل بقيادته من العدو أبداً .

ولعل من أهم عوامل تحقيق مبدأ الأمن ، بالنسبة للجيش الذي يتغلغل بالعمق بعيداً في البلاد المعادية وهو وضع حاميات في المراكز المهمة وهذا ما فعله يزيد في معاركه التي خاضها لاستعداد فتح جُرْجان وطَبَرِستان ، فقد خلّف حاميتين تَعْداد كلّ حامية أربعة آلاف مقاتل على طريق مواصلاته ،

---

(١٢٩) الطبري (٥٣٢/٦) .
(١٣٠) انظر التفاصيل في الطبري (٥٣٢/٦ ـ ٥٣٩) و (٢٧١/٤) وابن الاثير (٣٠/٢٩/٤) وابن خلدون (١٠١٩/٢) .
(١٣١) الطبري (٣٨٦/٦) وابن الاثير (٤٩٨/٤ ـ ٤٩٩) .

لحماية خطوط تلك المواصلات (١٣٢) .

ولا أعرف أسلوباً من أساليب تحقيق مبدأ الامن ، إلاّ اتّخذه يزيد في حروبه بكلّ حرص وكفاية وبموجب خطة عسكرية مدّبرة مدروسة ، فقد كان الرجل لايرتجل الخطط وبعيداً غاية البعد عن الارتجال .

ونعود إلى تطبيق مبدأ المباغتة ، فقد استطاع يزيد تطويق قلعة نيزك الحصينة في وقت كان فيه نيزك بعيداً عن قلعته (١٣٣) ، مما أجبر نيزك على الصلح فكانت عملية يزيد هذه مباغتة كاملة لنيزك في الزمان ، لأن يزيد طوق قلعته في وقت لايتوقعه نيزك .

وقد كتب يزيد ال الأصبهبذ في طَبَرِستان كتاباً يسأله فيه ان يحتال لِصُوْل حتى يقيم بجُرجان ، وهو يعلم ان كتابه سيّطلع عليه صُوْل بشكل أو آخر ، فيتحول عن جُرجان وينزل البُحيرة ، فيهاجم يزيد حنيذاك جُرجان ويستعيد فتحها بدون مقاومة تذكر .

فاذا تمّ له استعادة فتح جُرجان ، أصبح محاصرة البحيرة وفيها صُوْل ميسوراً ومضمون النتيجة .

وهذا ما طبقه يزيد فعلاً ، فاستعاد فتح جرجان وانتصر على صُول في البحيرة (١٣٤) ، وبذلك حقق مباغتة صُوْل بالزمان أيضاً .

وفي حصار جُرجان بعد ان نقضت وغدرت بحاميتها الاسلاميّة ، استطاع أحد رجاله أن يكشف طريقاً جديداً يؤدي اليها مباشرة ، فأعدّ خطة للهجوم على العدو المحاصر من اتجاه تلك الطريق وبالهجوم عليه من الجبهة (١٣٥) ،

---

(١٣٢) الطبري (٥٣٩/٦) وابن الاثير (٣/٥) .
(١٣٣) الطبري (٣٨٧/٦) وابن الاثير (٤٩٩/٤) .
(١٣٤) انظر التفاصيل فى الطبري (٥٣٨/٦ ــ ٥٣٩) وابن الاثير (٣٢/٥ ــ ٣٣) .
(١٣٥) انظر التفاصيل فى الطبري (٥٤١/٦ ٥٤٣ وابن الاثير (٣٤/٥ ــ ٣٥) .

فاستطاع استعادة فتح جُرجان ثانية بعد حصار مديد ، وحقق مباغتة عدوّه بالزمان والمكان معاً .

كما أنّ إعداد تلك الخُطّة وتوقيت تنفيذها الدقيق ، يمكن اعتباره مباغتة بالاسلوب أيضاً ، ومن المعلوم ان تطبيق مبدأ المباغتة ، يتمّ في المكان ، اي من مكان لايتوقعه العدو ، وفي الزمان ، اي في زمان لا يتوقعه العدو ، أو بالأسلوب ، أي بأسلوب تعبوي لايتوقعه الخصْم .

وقد حقق يزيد هذه الاساليب الثلاثة في تطبيق مبدأ : المباغتة .

ويبقى أسلوب رابع في تطبيق مبدأ : المباغتة ، هو استخدام سلاح جديد متفوق لايتوقع العدو استخدامه . وهذا الاسلوب لم يطبق من سائر قادة عصر يزيد العرب المسلمين ، لانهم لم يستطيعوا ابتكار سلاح جديد متفوق في حينه .

ج : ذلك مبلغ اهتمام يزيد بتطبيق مبدأي : الأمن والمباغتة .

د : ولكن يزيد لم يهمل بقية مبادىء الحرب الأخرى كما ذكرنا .

فقد كان يطبق مبدأ اختيار المقصد وادامته ، ولا اعرف قائداً اختار مقصده منذ كان (لاجئاً) في كنف سليمان بن عبد الملك ، ونفذه حرفياً دون تردد بعد ان تولى خراسان حين اصبح سليمان الذي كان ولياً للعهد خليفة ، وبين اختيار يزيد مقصده وبين تنفيذه بضع سنوات !

فحين كان يزيد عند سليمان بن عبد الملك بعد هربه من سجن الحجّاج كان سليمان كلما فتح قُتَيْبَة بن مسلم فتحاً يقول ليزيد ؛ « ألا ترى الى مايفتح الله على قُتَيْبَة ؟ » فيقول يزيد : « ما فعلتْ جُرجان التي قطعت الطريق وأفسدت (قُوْمِس) و (نَيْسابور) ؟ هذه الفتوح ليست بشيْ ، الشّان هي جُرجان ! » .

ونفذ يزيد ما وعد ، وكان هدفه واضحاً جلياً منذ امد بعيد ، والفرق بينه وبين كثيرين غيره ، أنهم يعدون ويخلفون ، ووعودهم هي لتولى المناصب

أما يزيد ، فلم ينس وعده ، وبادر الى تحقيقه ، وتحمّل الأهوال من أجله محتسباً . وكان يطبق مبدأ . التعرّض ، وكانت حروبه لها تعرّضيّه ، ولم يتّخذ خطّة الدّفاع طيلة حياته العسكرية . جندياً أو قائداً ، مرؤوساً أو قائداً عاماً .

وكان يطبق مبدأ : حشد القوّة ، فقد حشد قوات ضاربة قادرة على الفتح واستعادة الفتح واحراز النصر ، فحشد في جيشه اهل الشام واهل البصرة واهل الكوفة ووجوه أهل خراسان والرّي في مئة الف مقاتل سوى الموالي والمماليك والمتطوعين (١٣٦) وذلك قبل أن يسير إلى جرجان وطبرستان .

وهذا مجرّد مثال واحد على احتفال يزيد الباهر في تطبيق مبدأ . حشد القوة

وكان يطبّق مبدأ . الاقتصاد في المجهود ، فقد كان يستخدم القوات المناسبة لتحقيق الهدف المناسب . ولم يُعرف عنه أنه بذّر في المجهود أو استهتر بارواح أصحابه دون مسوّغ .

وكان يطبّق مبدأ . المرونة ، تطبيقاً رائعاً حقاً ، فلما ساءت احوال قواته في جُرجان ، لم يصرّ على تنفيذ خطته العسكرية المرسومة في القضاء على الأصبهبذ في طبرستان ، لأنّه اقتنع أنّ القوة وحدها لاتحقق له هدفه في استعادة الفتح فلجأ الى المفاوضات السياسية ، وأوفد حيّان النّبطي إلى حاكم طبرستان ، فعقد معه صلحاً وضع حداً للحرب الدائرة بين الجانبين إلى حين (١٣٧) .

ومن هذه العملية السياسية التي نفذها يزيد بنجاح ، نستنتج أن القوة وحدها قد تعجز عن تحقيق كثير من الأهداف . وأنّ السياسة قد تنجح في تحقيق أهداف عجزت القوّة العسكرية عن تحقيقها . وأنّ القوة لايمكن أن تستغنى عن السياسة . كما أنّ السياسة لايمكن أن تستغني عن القوة ، والقائد الحصيف

---

(١٣٦) الطبري (٥٣٢/٦) .

(١٣٧) انظر التفاصيل فى الطبري (٥٣٩/٦ ــ ٥٤١) وابن الاثير (٣٠/٥ ــ ٣٢) .

هو الذي يحقق التوازن بين السياسة من جهة وبين القوة من جهة أخرى .

ولكن يزيد لم يكن مرناً في المناورة أثناء القتال ، فهو اما أن ينتصر أو يموت ، أما أن ينحاز الى فئة أو ينسحب ، فلا .

وكان يطبق مبدأ : التعاون ، فقد كان ينسق التعاون بين أجناد الأمصار كما ذكرنا في تطبيق مبدأ الحشد ، فقد تعاون أجناد الكوفة وأجناد البصرة وأجناد الشام وأجناد خُراسان وأجناد الرَيّ ، وكان التعاون بين جميع هذه الاجناد وثيقاً فعملت بقيادة واحدة لتحقيق أهداف موحدة ، كما أنّ يزيد طبق هذا المبدأ في الحرب ، فجرى التنسيق بين قوات الهجوم الجبهوى وقوات الهجوم من الخلف ، فانتصر المسلمون في تلك المعركة على عدوّهم .

وكان يطبق مبدأ : إدامة المعنويات ، وقد ذكرنا قصّة كتاب يزيد إلى سليمان بن عبد لملك يبشّره بالنصر وبضخامة الغنائم في استعادة فتح جُرجان فأخذنا على يزيد مبالغته في هذه الرسالة ، ولكنه أراد بهذه المبالغة أن يتسامع بها رجاله بخاصة والمسلمون بعامة من أجل رفع معنوياتهم وإدامة مستواها الرفيع

وقد كان يكثر من مواجهة قوّاته بخطبه وأحاديثه ، لرفع المعنويات وإدامتها ، وكان يبادر إلى معالجة أي انهيار معنويّ فوراً ولا يفسح المجال أبداً لانهيار المعنويات .

وكان يطبق مبدأ الأمور الادارية ، فقد كان أسلوب توزيع الأرزاق على أفراد قواته بعد انتصاره في معركة البُجيرة متميزاً للغاية وعملياً وناجحاً . وكانت المسؤولية في جمع الغنائم وتوزيعها واضحة للغاية ، وكانت الرقابة على أموال الدولة صارمة بحيث لم يغب عنه ولا عن قواته تصرّف المسؤول عن مخازن الغنائم بخريطة تافهة الثمن والقيمة ، فأُعيدت إلى المخازن ، ونال الذي تصرف بها اللوم والتأنيب ١٣٩) .

(١٣٨) الطبري (٥٤٤/٦ ــ ٥٤٥) وانظر ابن الاثير (٣٥/٥ ــ ٣٦) .
(١٣٩) انظر التفاصيل فى الطبري (٥٣٨/٦ ــ ٥٣٩) وابن الاثير (٣٢/٥ ــ ٣٣) .

وكان يغدق على رجاله إغداقاً بلغ حدّ الاسراف ، ولما هرب من سجن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ودخل البَصْرَة ، أخذ يعطي مَنْ أتاه قطع الذّهب والفِضّة ، فمال الناس اليه (١٤٠) . وكان في كل حياته العامة والخاصة كريماً معطاءً لايقصّر في العطاء ما استطاع الى ذلك سبيلاً .

وكان يتدخل بتفاصيل القضايا الادارية ، لأنه يعرف أهميتها القصوى وكمثال على ذلك اتخاذه (الفعلة) ، وهم سلاح الهندسة كما نسميه في المصطلحات العسكرية الحديثة ، يقطعون الشّجر ، ويصلحون الطرق (١٤١) .
وكما كان يهتمّ بتأمين القضايا الادارية لاصحابه ، كان يحول دون وصولها الى عدوّه ، ففي حصار دِهسْتان : ألح عليها وأنزل الجنود من كل مكان حولها ، وقطع عنهم المواد ، فلما جُهِدوا أوعجزوا عن قتال المسلمين ، واشتدّ عليهم الحصار والبلاء، بعث صُول دِهْقان دِهْستان الى يزيد : «اني أصالحك على أن تؤمنني على نفسي وأهل بيتي ومالي . . . » (١٤٢) .

وكانت وسيلة يزيد لحرمان العدو من القضايا الادارية ، فرض الحصار على المدن والحصون التي يستعصى عليه فتحها ، وما فرضُ الحصار إلاّ معركة يربحها منْ يحرم العدو من المواد الغذائية وغيرها من القضايا الادارية ، ويؤمن في نفس الوقت القضايا الادارية لرجاله .

وما دمنا قد تطرقنا الى فرض الحصار ، فقد مارس يزيد في حرب جُرجان وطبرسْتان هذا الأسلوب التعبوي مرتين : مرة في حصار منطقة البحيرة حصاراً مديداً لمدة ستة شهور (١٤٣) ، ومرة في حصـــار مديد لمـــدة سبعة شهور(١٤٤) وانتصر في الحصارين على عدوه .

(١٤٠) الطبري (٥٨٠/٦) وابن الأثير (٧٢/٥) .
(١٤١) الطبري (٥٣٤/٦) .
(١٤٢) الطبري (٥٣٤/٦) .
(١٤٣) ابن الأثير (٣٣/٥) وهى منطقة دهستان .
(١٤٤) الطبري (٥٤٢/٦) .

ونهوض يزيد بهذين الحصارين المديدين ، يكذب مزاعم أعداء العرب من مستشرقين ومستغربين بأنّ العرب لايصبرون على حصار طويل .

وانتصار يزيد في هذين الحصارين المديدين على أعدائه ، دليل قاطع على اهتمامه بالقضايا الادارية اهتماماً كبيراً قاده الى النصر ، فلا نصر لقائد في حصار مديد لايؤمن القضايا الادارية لقواته بشكل متميز قدير ، ويحرم عدوّه منها بشكل صارم شديد .

هـ : لقد كان يزيد ذكياً حاضر البديهة ، لذلك كانت قراراته سريعة وصحيحة ، وبالرغم من شجاعته الخارقة ، « فكان أصحابه يقولون له : « انصرف ونحن نقاتل عنك ، فأبى ان يفعل ، وغشي القتال يومئذٍ بنفسه ، وكان كأحدهم » ، الا أنه لم يكن متهوراً ، إذ لم يكن يفقد أعصابه ، في ساعة القتال ، ويُعدّ لكل أمر عدّته لانقاذ رجاله وإحراز النصر (١٤٥) .

وكان يزيد يتمتع بارادة قوية ثابتة ، اذا اقتنع بأمر نفّذهُ ، لأنه كان شجاعاً لا يهاب الموت ولا يخشى أحدا .

وكانت نفسيته لاتتبدل في حالتي النصر والهزيمة ، فلا يتجبر في حالة النصر ، ولا يذل في حالة الهزيمة ، فهو ثابت النفس صلب العود ، يثق ثقة مطلقة بالقضاء والقدر .

وبلغ من قوّة شخصية يزيد ، أنه كان يتحدى الحجّاج الذي لايُتحدّى ، فقد أطلق الأسرى من عشيرته ومَنّ له فضل عليه أو على أهله ، ثم بعث بالباقين الى الحجاج لينفّذ فيهم حكم الموت (١٤٧) .

وكتب الحجاج الى يزيد : « أنْ أغز خُوارزْم » ، فكتب اليه :

---

(١٤٥) الطبري (٥٣٣/٦ ـ ٥٣٤) .
(١٤٦) الطبري (٥٣٤/٦) وابن الأثير (٣٠/٥) .
(١٤٧) الطبري (١٦/ ٣٨٠) .

« أيها ألامير ! إنها قليلة السلب ، شديدة الكَلَب »، فكتب اليه الحجاج : «لاتَغْزُها ، فانها كما وصفت » . فغزا يزيد ولم يُطِعْهُ (١٤٨) .

وكان الحجّاج بعد أن هزم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث لم يبق له هَمٌ الا يزيد وأهل بيته ، وقد كان الحجاج أذل أهل العراق كلهم الا يزيد وأهل بيته ومَنْ معهم من أهل المصرَيْن ، البصرة والكوفة – بخُراسان (١٤٩)

لقد كانت شخصية يزيد شخصية فذة ، تملأ الأعين قدرا واجلالا ، وتملأ الأنفس هيبة ووقاراً .

وكان يتمتع بقابلية بدنية سليمة ، فقد مارس الحرب وهو في ريعان الشباب ينازل الابطال ولداته يلعبون في الطرقات ، ومات وهو في أوج قابليته البدنية فسقط قتيلاً في المعركة ولم يسقط السيف من يده .

وكان له ماضٍ ناصع مجيد حسباً ونسباً ، وقديماً وجديداً ، وحتى آخر لحظة في حياته آثر الموت على الحياة في معركة خاسرة معروفة النتائج سلفاً ، على أن يلوث أحسابه أو سيرته بشائبة الهرب .

وقد صدق ثابت قُطْنَة في وصف يزيد قائداً:

إن أمرأً حدبتْ ربيْعة حولَـــه
والحَيُّ من يَمن وهاب كؤودا (١٥٠)
لضعيفُ ماضمّت جوانحُ صدرِه
إنْ لم يَلُفّ الى الجنود جنوداً (١٥١)
أيزيدُ كُنْ في الحَرْب إذ هَيَجتها
كأبيك لا رعشاً ولا رِعْديداً (١٥٢)

---

(١٤٨) الطبري (٣٩٦/٦) .
(١٤٩) الطبري (٣٩٦/٦ – ٣٩٧) .
(١٥٠) الكؤود : المرتقى الصعب .
(١٥١) ماضمت جوانح صدره : كناية عن القلب .
(١٥٢) الرعش والرعديد : الجبان .

شَاوَرْتَ أكْرم من تناول ماجداً
فرأيت هَمَّك في الهموم بعيداً
ما كان في أبَوَيْك قادِحُ هُجْنَة
فيكون زندك في الزناد صلودا (١٥٣)
إنا لضَرّابونَ في حَمَس الوَغَى
رأسَ المتوّج إن أراد صدوداً
وقُرٌ إذا كَفَرَ العجاج ترى لنا
في كل معركة فوارس صيداً (١٥٤)
ياليتَ أُسْرتك الذين تغيّبوا
كانوا ليومك في العراق شهُوداً
وترى مواطنهم إذا اختلف القنا
والمشرفيّة يلتظين وقوداً (١٥٥)

فلما قرأ يزيد قصيدة ثابت ، ويزيد في العراق يستعد لحرب مَسْلَمَة بن عبد الملك ، وثابت في خُراسان وعلم أن يزيد مصممٌ على إحدى الحسنيين : النصر أو الموت ، قال : « إنّ ثابتاً لغافلٌ عما نحن فيه ، ولعمري لأطيعنّه وسيرى مايكون ، فاكتبوا اليه بذلك (١٥٦) .

تلك هي مجمل مزايا يزيد الرئيسة قائداً ، ومزاياه الفرعية أيضا ، وقد كان الرجل مكشوفاً غير معقّد ، يستطيع الدارسون تبيّن شخصيته قائداً

(١٥٣) الهجنة : كون احد الزندين وارياً والآخر صالداً ، وصلد الزند : صوت ولم يور ، فهو صالد وصلود .
(١٥٤) العجاج : الغبار . كفره كفراً بالفتح : ستره وغطاه . والثرى الأرض . وصيد : جمع أصيد ، وهو رافع راسه كبرا .
(١٥٥) القنا : الرماح . والمشرفية : السيوف نسبة الى مشارف الشام .
(١٥٦) الأغاني (١٤/٢٧٧ ـ ٢٧٨) .

وإدارياً بوضوح ، ومن النادر أن نجد قائداً وإدارياً من الذين لهم صفحات في التاريخ العربي الاسلامي يمتلك شخصية واضحة المعالم غاية الوضوح كما في شخصية يزيد ، فقد عاش الرجل لانفسه حسب بل للناس جميعاً ، فبقى خالداً في التاريخ بينما مات الذين عملوا لأنفسهم وهم على قيد الحياة .

لقد كان يزيد قائداً فذاً ، قد لا يتكرر مثله إلا نادراً .

٢ ـ اسباب هزيمته

حين عزل الحجّاج يزيد عن خُراسان ، استشار يزيد أحد المقربين اليه من ذوي العقل والحكمة ، وهو حُضَيْن بن المنذر فقال له : « أقِمْ واعتلّ فانّ أمير المؤمنين حسن الرأي فيك ، وإنما أُتيتَ من الحجاج ، فان أقمتَ ولم تعْجل ، رجوت أن يكتب اليه أن يقر يزيد » . قال : « أنا أهل بيت بورك لنا في الطاعة ، وأنا أكره المعصية والخلاف » (١٥٨) .

وفي سنة ثلاث وثمانين الهجرية (٧٠٢م) . خاض عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث الكِنْدِيّ معركتين كبيرتين في ثورة عارمة على الدولة التي كان الحجّاج يقود جيشها ، فانتصر الحجّاج على ابن الأشعث ، وهرب ابن الأشعث وفلول جيشه إلى سِجِسْتان .

---

(١٥٧) هو حُضَين بن المنذر بن الحارث بن وَعْلَة بن المُجالد بن اليَشْرِبِيّ ابن الرَّيّان بن الحارث بن مالك بن شيبان بن ذُهل بن ثعلبة ، صاحب راية ربيعة كلها العلى بن ابى طالب رضى الله عنه يوم صفين ، وفيه يقول على رضى الله عنه :

لمَنْ راية سَوْداء يَخْفِقُ ظِلها اذا قيل : قدّمها حُضَيْنُ تقدما

انظر جمهرة انساب العرب (٣١٧) .

(١٥٨) الطبري (٣٩٥/٦) .

ولجأت تلك الفلول إلى (هَراة) بقيادة عبد الرحمن بن العبّاس الهاشمي فخاض يزيد معركة ضد تلك الفلول بعد أن بذل قصارى جهده في دعوته السلميّة دون جدوى .

وكان يزيد من البصرة ، وكان الحجاج قد أذلّ أهل العراق كلهم ألا يزيد وأهل بيته ومَنْ معهم من أهل البصرة والكوفة بخراسان (١٥٩) .

وفي عنفوان المعركة التي دارت بين يزيد من جهة والهاشمي من جهة أخرى أراد أحد رجال الهاشمي ، أن يسمع يزيد مايعانيه أهل العراق من الحجاج فقال :

دَعتْ يايزيدَ بن المهلَّب دَعْوَةً
لها جزَعٌ ثمّ استهلَّتْ عيُونُها
ولو يُسْمِع الداعي النداءَ أجابَها
بِصُمٍّ القَنَا والبِيْض تلْقَى جفُونها
وقد فَرَّ أشرافُ العِراق وغادروا
بهـا بقَراً للحيْن جُمّاً قُرونُها

وأراد أن يحض يزيد ، فسكت يزيد طويلاً حتى ظن الناس أنّ الشعر قد حركه ، ثم قال لرجل : « نادِ وأسمعهُم ، جَشَّموهم ذلك » ، يريد : أنتم كلفتموهم بذلك ، فقال خُلَيد .

لبئس المنادِي ، والمنوّهُ باسمه
تناديه أبكارُ العراق وعونُها
يزيد إذا يُدْعى ليوم حَفيظَة
ولا يَمْنَعُ السَّوْآتِ إلاّ حُصُونُها
فإني أراه عن قليلٍ بنفسه
يُدانُ كما قد كان قَبْل يَدينُها

(١٥٩) الطبري (٦/٣٩٦ ـ ٣٩٧) .

فلا حُرَّةٌ تَبكيه لكن نَوائحٌ
تُبكي عليه البُقْعُ عنها وجُونها (١٦٠)

وهكذا أراد الشاعر استثارته لعله ينتقض على الحجّاج حميّة لاهل العراق العرب الذين هو منهم ، ولكنه فكر ملياً قبل أن يُجيب ، فلما عاد اليه رشده بعد سكوته الطويل ، لم يستجب إلى إثارة الشاعر العاطفية ، والقى باللوم كله على الثوار الذين اصطلت بنار ثورتهم نساء العراق ورجاله على السواء .

ولمّا ألحّ الحجّاج وألحف على عبد الملك بن مروان في طلب عزل يزيد من خُراسان بحجة انه من الموالين لآل الزبير وأن يزيد وآل المهلب زبيرية كتب اليه عبدالملك : « إني لاأرى نقصاً بآل المهلّب طاعتهم لآل الزّبير بل أراه وفاء منهم لهم ، وإنّ وفاءهم لهم يدعوهم إلى الوفاء لي » (١٦١) .

لقد كان يزيد رجل دولة ، منضبطاً ملتزماً ، وكان يتحلّى بمزية الضبط المتين ، ولكنه لم يكن إمّعةً يميل حيث تميل الريح ، بل كان له رأيه الذي يعتز به ولا يُخفيه . ولم يكن من أهدافه إعلان الثورة على الدولة ولاخلع الخليفة فقد خدم الدولة والخلفاء خدمة صادقة كل حياته وقاتل أعداءهم في خارج الحدود وداخلها وحقق انتصارات باهرة هو والمهالبة من آل بيته يذكرها التاريخ لهم ما بقي التاريخ .

ولكنه هرب من سجن حلب بعد أن أيقن أن عمر بن عبد العزيز يعاني سكرات الموت . وكتب الى عمر بعد أن أصبح حراً من سجنه : « إني والله لوعلمتُ أنك تبقى مـاخرجتُ من محبسي ، ولكني لم آمن يزيـد بن عبدالملك (١٦٢) .

وصدق يزيد بن المهلب . فقد كان بينه وبين يزيد بن عبد الملك عداوة

(١٦٠) الطبري (٣٧٢/٦) .
(١٦١) الطبري (٣٩٥/٦) .
(١٦٢) الطبري (٥٦٤/٦) .

مستحكمة ، وكان يخشى أن يعذبه يزيد ويقتله ، فكان انطلاقه من سجنه دفاعاً عن النفس ، وهو دفاع مشروع .

وتطورت الأمور بسرعة بعد وصول يزيد إلى العراق ، وجرت الرياح بما لا تشتهي السفن ، حتى آلت الأمور إلى ما آلت اليه حرباً ضروساً لم يكن من دعاتها ولكنه اصطلى بنارها ، فاحترق الاخضر واليابس ، ووقع أبلغ الضرر على يزيد وآل بيته .

وسبب اندحاره في تلك الحرب بالرغم من كفايته القيادية ، هو أنّ الاحداث جرفته بقوة وعنف ، فلم يستطع أن يختار مكان المعركة وزمانها ، ويفرض هذا الاختيار فرضاً على قائد جيش الدولة ، وبذلك خسر نصف المعركة قبل أن ينشب الاقتتال .

فقد كتب يزيد بن عبد الملك إلى أمير الكوفة وأمير البصرة يعلمهما بهرب يزيد بن المهلب ويأمرهما أن يتهيأ كلّ منهما لقتاله ، وأن يسجن أميرُ البصرة آل بيت المهلّب .

اما امير الكوفة ، فقد بعث جيشاً لقتال يزيد ، فمرّ يزيد في طريق هربه إلى البصرة بجيش الكوفة . فاتّقى ذلك الجيش الاقدام عليه ، فمضى يزيد إلى سبيله ، وعاد جيش الكوفة إلى الكوفة راضياً بالسّلامة .

وأما أمير البصرة ، فقد جمع اليه أهل البصرة ، وخندق عليها ، وبعث على خيل البصرة قائداً من قادته ، فقال عبد الملك بن المهلب لأمير البصرة : « خُذْ ابني حُمَيداً فاحبسه مكاني ،وأنا أضمن لك أن أردّ يزيد عن البصرة حتى يأتي فارس ، ويطلب لنفسه الأمان ، ولا يقربك » ، فأبى عليه .

وجاء يزيد ومعه أصحابه الذين أقبل فيهم ، والبصرة محفوفة بالرجال ، وقد جمع محمد بن المهلّب – ولم يكن ممن حُبِسَ – رجالاً وفتية من أهل بيته وناساً من مواليه ، فخرج حتى استقبل يزيد ، فأقبل يزيد في كتيبة تهول من رآها.

وأقبل يزيد لا يمر بخيل من خيول البصرة ولا من قبائلها الا تَنَحَّوْا

له عن طريقه حتى يمضي . واستقبله قائد خيل والي البصرة ، فحمل عليه محمد ابن المهلّب في الخيل ، فأفرج له عن الطريق هو واصحابه .

ومضى يزيد في طريقه قُدُماً حتى نزل داره ، واختلف الناس اليه .

وبعث يزيد إلى امير البصرة ، أن ادفع إليّ إخوتي الذين سجنتهم ، وأنا أصالحك على البصرة ، وأُخليك وإياها حتى آخـــذ لنفسي ما أُحبّ من يزيد ابن عبد الملك .

ولكن أمير البصرة رفض عرض يزيد ، فاضطرّ يزيد أن ينقذ إخوته من السجن بالقوة (١٦٣) .

وسُفك الدم بين رجال الدولة ورجال يزيد . فلم يعد هناك أمل بالصلح بين الجانبين .

وكان حُمَيْد بن عبد الملك بن المهلّب قد خرج الى يزيد بن عبد الملك في الشام ، فبعث معه ابن عبد الملك بأمان يزيد وأهل بيته (١٦٤) ، ولكن هذه المساعي السلمية للصلح جاءت متأخرة بعد أن سُفك الدّم . والدّم يعقبة الدّم .

وتكاثر الناس على يزيد في البصرة ، ينضمّون إلى جيشه ، كان يغدق عليهم المال بسخاء . بينما يبخل عليهم أمير البصرة بهذا المال (١٦٥) ، وأكثر الناس عبيد جيوبهم لاسادة قلوبهم .

وخرج يزيد من البصرة ، وخرج معه بالسلاح وبيت المال ، فاقبل حتى نزل مدينة (واسط) ، وهناك استشار أصحابه قائلاً : « هاتوا الرأى ، فانّ أهل الشام قد نهضوا اليكم ! » ، فقال له حبيب بن المهلب ، وقد أشار عليه غير حبيب أيضاً ، فقالوا : نرى أن تخرج وتنزل بفارس ، فتأخذ بالشعاب والعقاب وتدنو من خُراسان ، وتطاول القوم ، فانّ أهل الجبال ينفضّون

(١٦٣) انظر التفاصيل في الطبري (٦/٥٧٨ ــ ٥٨٢) .
(١٦٤) الطبري (٦/٥٨٠) .
(١٦٥) الطبري (٦/٥٨٠ ــ ٥٨١) .

اليك وفي يديك القلاع والحصون » ، فقال يزيد : « ليس هنا برأي ، ليس يوافقني هذا ، وانما تريدون أن تجعلوني طائراً على رأس جبل » . فقال حبيب « فان الرأي الذي كان ينبغي أن يكون في أوّل الامر قد فات : قد أمرتك حيث ظهرت على البصرة أن توجّه خيلاً عليها أهل بيتك حتى ترد الكوفة ، فانّ اميرها مررت به في سبعين رجلاً فعجز عنك ، فهو عن خيلك أعجز في العدة فنسبق اليها أهل الشام ، وعظماء أهلها يرون رأيك وان لي عليهم أحب إلى جلهم من أن يلي عليهم أهل الشام ، فلم تُطعني ! وأنا أشير الآن برأيي : سرِّح مع أهل بيتك خيلاً من خيلك عظيمة فتأتي الجزيرة — جزيرة ابن عمر — وتبادر اليها حتى ينزلوا حصناً من حصونها ، فاذا أقبل أهل الشّام يريدونك لم يدعوا جنداً من جنودك بالجزيرة ، ويقبلون اليك ، فيقيمون عليهم ، فيحبسونهم عنك ، حتى تأيهم فيأيك مَنْ بالموصل من قومك ، وينفض اليك أهل العراق وأهل الثغور ، وتقاتلهم في ارض رخيصة السّعر ، وقد جعلت العراق كلّه وراء ظهرك ! » ، فقال : « إني اكره ان اقطع جيشي وجندي » (١٦٦) .

ولم يستطع يزيد أن ينفّذ رأياً من هذه الآراء الحصيفة المخلصة ، لأن الأحداث التي كانت تجري بسرعة خاطفة قد سبقته ، فقد بعث يزيد ابن عبدالملك العبّاس بن الوليد بن عبد الملك في اربعة آلاف فارس جريدة خيل ، حتى وافوا الحيرة يبادر اليها يزيد بن المهلب ، ثم أقبل بعد ذلك مسلمة بن عبد الملك وجنود الشام ، واخذ على الجـزيرة وعلى شاطىء الفـرات (١٦٧) ، ففات الوقت التي كان يستطيع ابن المهلب أن يسير الى الجزيرة ، لأنها أصبحت بسيطرة أهل الشام ، أو يسير الى فارس وخُراسان ، لأنّ جيش الشام أصبح قريباً منه لايدعه يفلت أو يتملص من قبول المعركة .

---

(١٦٦) الطبري (٦/٥٨٨ — ٥٨٩) .

(١٦٧) الطبري (٦/٥٨٥) .

وهكذا فرضت قوّات الدولة مكان المعركة ، وزمانها ، فربحت بذلك الدّولة نصف المعركة ، وكان المفروض ان يفرض زمان المعركة ومكانها يزيد على قوّات الدولة .

ولم يكن مكان المعركة مناسباً ، فقد كان مكشوفاً في سهل ممتد الى مسافات شاسعة ، يساعد على الهجوم ولكنه لا يساعد على الدفاع ، وقوات الدولة اذا خسرت المعركة فيه ، فانها لاتخسر كل شيء ، لأنها تستطيع أن تُعيد الكرة مرّة بعد أخرى ، حتى تحرز النصر .

أما الأمر بالنسبة الى يزيد ، فمختلف جداً ، لأنه اذا خسر معركة واحدة فقد خسر كل شيء كما حدث ، ذلك فعلاً .

كما أنّ مكان المعركة قريب من قاعدة الدولة الرئيسة في أرض الشام ، كما أنه قريب من القواعد المتقدمة : الكوفة وواسط والبصرة والجزيرة ، ولاعبرة بسيطرة يزيد على البصرة وواسط ، لأنها تبقى قواعد متقدمة للدولة ، مادامت الدولة قائمة ، وتدفع الأموال ثمناً للامورالادارية التي يحتاج اليها جيشها ، أما فارس وخُراسان فبعيدة عن قواعد الدولة الرئيسة والأمامية والمتقدمة ، مما يعرقل القضايا الادارية لقوات الدولة ، ويهدد خطوط مواصلاتها بالانقطاع في اول نكسة تصيب تلك القوّات .

كما أنّ ليزيد جذوراً عريقة وعميقة في خراسان ، وفيها أعداد ضخمة من قومه ومن الموالين له يَعتمد عليهم غاية الاعتماد في القتال ، فكان بامكان يزيد الاستفادة من اولئك الأنصار المخلصين له في الحرب ، وقد ادرك يزيد هذه الحقيقة بعد فوات الاوان ، فقـال قُبَيْل أن ينشب القتال : « ترون أن في هذا العسكر الف سيف يُضرب به ؟ ! » ، فقيل له : أي والله ، وأربعة آلاف سيف » ، قال « انهم والله ما ضربوا الف سيف قط ، والله لقد أحصى ديواني مئة وعشرين الفاً ، والله لوددْتُ أنّ مكانهم السّاعة معي مَنْ بخراسان

من قومي! » (١٦٨).

ولم يكن زمان المعركة مناسباً أيضاً ، فان المطاولة تفيد يزيد لاستكمال استحضاراته القتالية ، فكان ينبغي أن يكمل هذه الاستحضارات ثم ينشب القتال بعد اكمال الاعداد لاقبله على كلّ حال .

ومن أسباب هزيمة يزيد ، أنه لم يستطع أن يُعلن سبباً مسوغاً لثورته على الدولة ، فخوفه على نفسه من يزيد بن المهلب ليس سبباً يقنع الناس في حينه بأنه على حق فيما اقدم عليه .

لقد تظاهر يزيد بانه ثار على الدولة ليعمل بكتاب الله وسنّة نبيه صلى الله عليه وسلم (١٦٩) ، باعتبار أنّ الدولة انحرفت عن منهج الدين الحنيف ، ولكن لااعتقد أنّ الحشود الذين التفوا حوله قد صدّقوا هذا الشعار الذي أعلنه ، كما لا أعتقد أن آل بيته المهالبة قد صدّقوا هذا الشعار أو التزموا به .

وقد كان الشعور الديني حينذاك قويّاً عارماً ، وكان الناس يقبلون على مثل هذا الشعار إقبالاً شديدا ، وكان في البصرة والكوفة من العلماء الأعلام الذين لا تنطلي عليهم الشعارات الزائفة ولا يسكتون عن الذين يحملونها زوراً وبهتاناً .

فقد خطب يزيد بعد خلع يزيد بن عبد الملك وإعلان ثورته ، فأخبر اهل البصرة بخطابه أنه يدعو الى كتاب الله وسنّة نبيّه ويحثهم على الجهاد ، وكان الحسن البصري يسمع ، فرفع صوته يقول : « والله لقد رأيناك والياً ومُوَلّى عليك ، فما ينبغي عليك ذلك » (١٧٠) ، ومرّ الحسن بالناس وقد نصبوا الرايات وهم ينتظرون خروج يزيد ، وهم يقولون : تدعونا الى سُنّة العُمَرَين ، فقال الحسن : « كان يزيد بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين ترون ، ثم

(١٦٨) الطبري (٥٩٢/٦) .
(١٦٩) الطبري (٥٩٢/٦) .
(١٧٠) ابن الأثير (٧٥/٥) .

يرسلها إلى بني مروان يريد رضاهم ، فلما غضب نصب قصباً ثم وضع عليها خرقاً ، ثم قال « اني قد خالفتهم فخالفوهم ! قال هؤلاء : نعم ! ثم قال : « إني أدعوهم إلى سُنّة العُمَرَيْن ، وأنّ من سُنّة العُمَرَيْن أن يوضع في رجله قيد ثم يُردّ إلى محبسه » (١٧١) . ثم مضى الحسن يثبط الناس ، ويأمرهم بالقعود ، لان يزيد في شعاره الديني الذي رفعه ليس صادقاً .

وكان في المجتمع الاسلامي من علماء الحق أمثال الحسن البصري كثير ، يقولون كلمة الحق كما جاء بها الدين الحنيف ، ولم يكن في ذلك المجتمع من علماء السلطان الذين يؤيدون السلطان ويسوغون كلمته مهما تناقض تعاليم الدين الحنيف ، لذلك أخفق يزيد في رفع هذا الشعار ، لأنه لم يكن بينه وبين رجال الدولة فرق كبير ، ولان صوت علماء الحق اكتسح صوت علماء السلطان ، فالتف حول يزيد الراغبون في الدنيا ، ولم يلتف حوله الراغبون عن الدنيا .

ومن المعلوم أنّ الذي يقاتل عن عقيدة راسخة ، ليس كالذي يقاتل بدون عقيدة ، والجندي المجاهد غير الجندي المرتزق ، وكل ثورة بلا (قضيّة) تؤمن بها وتدافع عنها قد تنتصر ولكن انتصارها لايبقى طويلاً ، ومصيرها إل الاخفاق الاكيد .

وقد كان غالبية جند يزيد مرتزقة ، تكاثروا عليه حين وجدوه جواداً كريماً . وتخلوا عن أمير البصرة حين وجدوه بخيلاً مقتّرا ، فلما زجت الدولة بقواتها الضاربة وفتحت خزائنها بسخاء للذين يؤيدونها ، تسلل كثير من المرتزقة إلى معسكر الدولة من معسكر يزيد ، فالامر بالنسبة لهؤلاء مسألة مكاسب شخصية لا اكثر ولا اقلّ .

كما أنّ غالبية جيش مَسْلَمَة بن عبد الملك ، وهو جيش الدولة ، كان من المرتزقة أيضاً ، فكان من اسباب اخفاق يزيد أن مرتزقته قاتلوا لمستقبل غير

(١٧١) الطبري (٥/٧٦) .

مضمون ، بينما انتصر مرتزقة الدولة لانهم قاتلوا لمستقبل مضمون ، فما مستقبل يزيد الغامض كمستقبل دولة قائمة راسخة الجذور .

وبالنسبة للمرتزق ، فانه يشهد الحرب ولكنه لايقاتل الا مضطراً أبداً ، أما اذا كان في غفلة من عيون المراقبين ، فهو لايقاتل ابدا ، بل يأوى الى موضع امين مريح ، حتى تنتهي المعركة غير مكترث اذا خسرها الذين يرتزقون منهم أو ربحوها ، وقد ينقلب عن جماعته الى اعدائها اذا كان ما يدفع العدو أكبر مما يدفعه الصديق .

فاذا شعر المرتزق أن حياته أصبحت مهددة بالموت ، وكان قادراً على الفرار فانه لا يتردد لحظة واحدة عن الفرار من خطر المعركة إلى امن السّلام .

وقد هرب مرتزقة يزيد فورا حين قيل لهم : أحرق الجسر ، فانهزموا لايلوون على شيء ، لانّ الجسر يفيدهم في التسلل إلى الصحراء أو إلى المدن الأخرى فقال يزيد : « قبّحهم الله ! بَقٌ دُخِّن عليه فطار » ، وخرج يزيد وخرج معه أصحابه ومواليه وناس من قومه ، فقال : « اضربوا وجوه من ينهزم » ، ففعلوا ذلك بهم ، فاستقبلهم منهم مثل الجبال ، فقال : « دعوهم ! فوالله إني لاارجو ألايجمعني الله واياهم في مكان واحد ابداً ! دعوهم يرحمهم الله غَنَمٌ عدا في نواحيها الذئب » (١٧٢) .

وصدق يزيد ، فالمرتزقة كالبَق ، يطير بعيدا عن الدخان ، أما غير المرتزق فلا يخشى الدخان ، بل يقتحم النار ولا يحترق .

وسبب هرب المرتزق في اول صدمة ، هو أنه لا (قضية) له يؤمن بها ويدافع عنها ويضحي من أجلها ، كما أنه يتعرض للموت ، فالروح أغلى من المال الذي يقبضه ، وهو تاجر في الحرب يوازن بين الخسارة والربح ، فاذا ربحت كفة الخسارة على كفة الربح ، تملص من المعركة ناجياً بروحه ليدخرها لارتزاق جديد .

---

(١٧٢) الطبري (٦/٥٩٥) .

وهكذا لم يبق مع يزيد في معركة (العَقر) غير اصحابه ومواليه وناس من قومه ، ثبتوا وضحّوا دفاعاً عن انفسهم ومصالحهم الشخصية واحسابهم ، اما (القضية) التي يضحي الناس من اجلها ، فغائبة عن هذا الميدان.

وتَغَلُّبُ عنصرِ المرتزقة على جيش يزيد ، جعله لا يثق به كما كان يثق برجاله الذين قاتلوا تحت رايته في معارك الفتح ومعارك استعادة الفتح .

وقد كان تَعداد جيشه مئة الف في معركة (العَقْر) ، ولكنه كان لايصدق أنّ الفاً منهم يقاتلون كما يقاتل الرجال (١٧٣) ، أي أنّه كان يثق بواحد بالمئة من تعداد جيشه ولا يثق بتسع وتسعين بالمئة من هذا الجيش !

ولا يمكن أن ينتصر قائد يقود مثل هذا الجيش !

ومن عيوب المرتزقة ، أنهم لا يتحلّون بالضبط المتين ، فهم لا يطيعون الاوامر كما ينبغي . ولا ينفذونها إذا كان تنفيذها يناقض مصالحهم الشخصية ، وبخاصة اذا كان تنفيذها يؤدي بهم الى الموت .

لقد كانت أوامر يزيد في المعركة لاتنفذ ، وكانت موضع نقاش بينه وبين المترددين من رجاله (١٧٤) ، وكان لاينفذ أوامره غير اصحابه ومواليه وأهل بيته ، أما الباقون فكانوا متفرجين . ولقد برز رجل من اهل الشام في بداية المعركة ودعا الى المبارزة . فلم يخرج اليه أحد من جيش يزيد ، فاضطر محمد ابن المهلب أن يبرز للرجل الشامي ويقاتله (١٧٥) ، اذ ان المبارزة هي تحدي جيش لآخر . ولا ينبغي السكوت عن التحدي ولا قبوله .

تلك هي مجمل اسباب هزيمة يزيد : قبول معركته الفاصلة في وقت غير مناسب . وغياب (قضيّة) . يؤمن بها الناس ويلتفون حولها ويضحون من اجلها ،

(١٧٣) الطبري (٥٩٢/٦) .
(١٧٤) الطبري (٥٩٣/٦) .
(١٧٥) الطبري (٥٩٥/٦) .

وقيادة جيش من المرتزقة لايقاتل ولا يوثق به ، ولا يتحلى بالضبط المتين ولا يطيع الاوامر الصادرة اليه من القيادة ولا ينفذها .

بقي علينا أن نذكر أنّ يزيد كان يعتد برأيه كثيراً ولا يعتد بآراء الآخرين ، ولا يقبل نصائح الناصحين ، فهو قلما يستشير احداً واذا استشار خالف المشيرين .

وأستطيع أن أتبين بوضوح من دراسة شخصيته ، أنه كان يتميز بالعناد الشّديد ، فاذا قرر امراً مضى في تنفيذه ، غير ملتفت إلى آراء الآخرين .

وحين وجد اموره في معركة (العَقْر) سيّئة لا تبشّر بخير ، قرر أن يموت مقاتلاً ، فقد كان لايحدّث نفسه بالفرار (١٧٦) .

وطالما تحدث عن هرب عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكِنْدِيّ من معركته امام الحجّاج بن يوسف الثقفي ، فقال عنه بمرارة وأسى : « إنّ عبد الرحمن فضح الذّمار ، وفضح حَسَبه ، وهل كان يعدو أجلَه »(١٨٧)

وهو الذي اوصى ابنه خالداً ، وقد بعثه قائداً لسرية في واجب محفوف بالاخطار ، في معارك استعادة فتح (جُرْجان) ، فقال لابنه : « إنْ غُلِبْتَ على الحياة ، فلا تُغْلَبَنّ على الموت ، وإيّاكَ أن اراك أن عندي مُنْهَزَماً (١٧٨)

وليس يزيد ممن ينتقدون أحداً ، ولا يتحاشون ماعابوا الناس به ، وليس ممن يوصي ابنه بأمرٍ ، ولا يطبّق وصيّته على نفسه ، وليس يزيد ممن يقولون مالا يفعلون .

ومضى يزيد إلى الموت حُضْراً على حصانه ، والسيف بيده لا يرتعش ولا يهون ، فسقط قتيلاً وبقي السيف بيده ، فخسر في معركته الأخيرة كل شيء . . . . إلا الشَرَف .

---

(١٧٦) الطبري (٥٩٦/٦) .
(١٧٧) الطبري (٥٩٢/٥) .
(١٧٨) الطبري (٥٤٣/٦) .

ابن المهلب في التاريخ

يذكر التاريخ ليزيد بن المهلب ، أنّه فتح مناطق واسعة في بلاد ما وراء النهر وخُراسان وطَبرِستان .

وانه استعاد فتح مناطق شاسعة انتقضت من هذه البلاد الاسلاميّة الثلاثة .

وأنّه أعاد اليها الأمن والاطمئنان والسلام بعد ان كانت ردحًا من الزمن تعج بالقلاقل والاضطرابات والفتن .

ويذكر له ، أنّه كان قائداً فذاً لا يتكرر الا نادراً ، وادارياً قديراً يسيطر على رعيته بقوة من غير عنف وسماحة من غير ضَعف .

ويذكر له أنّه كان يؤثر أن يكون (غازياً) في الفيافي والقفار والسهول والجبال ، على أن يبقى (جابياً) فى المدن والأمصار والقصور والدور .

ويذكر له ، أنّه كان يقود رجاله من (الامام) ، يقول لهم ، اتبعوني ، ولا يقود رجاله من الخلف ، يقول لهم : تقدموا ، ويبقى هو في موضع أمين

ويذكر له ، أنّه كان جوادا سبق الاولين والآخرين في جوده ، كأنّ السّفن كانت تمخر في عُباب جوده .

ويذكر له ، أنّه كان شجاعاً لايخشى أحداً في القتال ، ويخشاه كل أحد ، وكان الموت أهون عليه من الفرار .

ويذكر له ، أنّه كان يقول ويفعل ، ولا يقول دون أن يفعل ، وكان عمله الغالب على قوله ، فاذا تكلم التزم بكلامه التزاماً مطلقاً .

ويذكر له ، أنّه ضحى بنفسه ، ولم يُضح بشرفه ، فخسر كل شيء في معركته الأخيرة الا شرفه وشرف قومه .

ويذكر له ، أنّه من بين القلائل الذين استحقوا ثناء أعدى اعدائهم وثناء الذين ساقهم الى الموت في ميدان القتال .

ويذكر له ، أنّه كان فتى العرب في أيامه دون منازع ، وسيد أهل العراق بعامة واهل البصرة بخاصة .

ويذكر له ، أنّ قتله لم يكن خسارة للمهالبة وحدهم ، بل كان خسارة للدولة وخسارة للمسلمين كافة .

ويذكر له أنّه قضى حياته أميراً تارة وسجيناً تارة أخرى ، ولكن منزلته أميراً ومنزلته سجيناً في القمة بنظر الناس الذين يقصدونه في السجن كما يقصدونه في القصر .

ويذكر له ، أنّه من القلائل الذين يثبتون عملياً ، بانّ مراسيم الخلفاء تصنع الوزراء ولكنها لا تصنع الرجال .

يرحم الله القائد الفاتح ، الاداري الحازم ، الفارس البطل ، الجواد الكريم ، يزيد بن المُهَلَّب بن أبي صُفْرة الازدي ، جزاء ماقدّم للعرب والمسلمين حياً من أعمال جليلة ، وما قدّمه ميّتاً من مُثُلٍ عُلْيا .

★ ★ ★